دموع سانت تريزا

دموع سانت تريزا

مجموعة قصصية

أحمد عبد الغني

تصميم الغلاف: محمد علي

تدقيق لغوي : محمود ربيع

رقم الإيداع: 28296 /2022

I.S.B.N:978- 977-6854-98-7

الطبعة الأولى2023م

للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

المدير التنفيذي : ثائر عزت

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

أحمد عبد الغني

دموع سانت تريزا

مجموعة قصصية

الإهداء

إلى أمي وزوجتي وبناتي..

إلى كل نساء العالمين

إليكن هذا الأهداء

عسى أن أكون عند حسن ظن بنات حواء..!!

مقدمة

الفتاة الصغيرة التي تضحك بكل براءة وخجل وعلى استحياء.. التي ترتمِي في حضن أمها بحثًا عن الدفء، وفي حضن أبيها بحثًا عن الأمان، تستند على كتف صديقتها بحثًا عن أخت لها تأتمنها على أسرارها، تستند على ظهرِ رجل يحميها من غدر الزمان، تبحث عن ذاتها في الدراسة أو العمل، تحلم وتجدُ كل هذا هراءً! فتفقد نفسها ويفقدها المجتمع وتتوه منَّا حقائق النساء، رغم أنهنَّ نصف المجتمع سواءً و افق الرجال أم لا.. هي الأم.. الأخت.. الزوجة.. البنت.. بنت الجيران.. الحبيبة.. الصديقة.. العشيقة.. كلُّهن يؤثِّرن في حياة الرجال ويتأثرن أيضًا.

أحيانًا تعيش دور المظلومة، وأحيانًا تعيش دور الظالم.. هي الجاني والضحية.. هي القاضي والمحامي والجلاد..

تدور الحياة حولهن.

نحاول نحن معشر الرجال فهمَهُنّ، لكننا نعجز كثيرًا.. وهنَّ أيضًا يعجزن عن فهم أنفسهنّ.

كل يوم.. بل كل ساعة هناك قصص نجاح وقصص فشل للمرأة، هناك في أقصى بقعة من العالم امرأة تبكي وأخرى تضحك.. امرأة تخون امرأة أخرى.. وامرأة تقتل أحلام امرأة أخرى.

أحضان دافئة ودموع كاذبة.. أجساد عارية.. وأعين نائمة.. أيادٍ ترتعش وقلوب ترتجف، وأحبار على الأوراق تكتب قصصهن، وشفاه تتحرك لتحكي كل واحدة منهن قصتها.

قصص نسائية جدًّا تحكيها كل امرأة تعرّضَت للخيانة الزوجية، أو تعرضت لقصة حب لم تكتمل، كل فتاة كانت تحلم بالحرية والمساواة، وعندما تحقّق حلمها لم تفهم معناه، كل امرأة تعرّضَت للتحرش يومًا

ما.. وكل أمراة بحثت عن الحضن والأمان عن الصديق أو الزوج أو فارس الأحلام ولم تجده !

الأقنعة

تمضي الحياة بيننا وكأنها عرض مسرحي يتم عرضه على الشاشات بالتصوير البطيء ... زواج تقليديّ، أو ما يسمّى في المجتمع المصري زواج صالونات.. مجلس.. فتعارُف.. فنظرةٌ.. فلقاءٌ.. فخطوبة لفترة وجيزة لم نتعارف فيها بشكل جيّد، ثم زواج ورسميات والتزامات وارتباطات وأولاد، ولا يخلو الجو العام والحياة بيننا من المشاكل الزوجية المعتادة، ومن الأحداث المميزة السعيدة في أحيان أخرى، وهكذا تمضى الأيام متثاقلة أحيانًا.. سريعة ومتلاحقة في أوقات أخرى، حتى في أوقات اللقاء المرتقَب ولذة الاشتياق ورعشة الأجساد كانت تتمّ كأنه لقاء عابر يبدأ بطيئًا مملًا ثقيلًا، ثم ينتهي سريعًا ونفترق.. يبدأ بنظرة و ابتسامة وتلامس وضحكة، ثم عناق وقبلات وأحضان وتجرد من بعض الملابس التي قد تعيق أداء المهام المطلوبة، ثم تنتهي المهمة بانتفاضة سريعة تنهي كل شيء، ويتحول هذا الأمر كأنه واجب مدرسي لا بُدّ أن نؤديه في مواعيد وأوقات معينة، حتى فقدَ أهميته وصار أمرًا روتينيًّا ككل شيء في حياتنا من كلام ومن أحداث، ومن تربية الأطفال، ومن الذهاب إلى العمل وإلى زيارة الأهل، ومن الكلام الممل الذي يتكلّمه كلٌّ منا، ويبدو وكأننا تحولنا إلى ممثلين قديرين على مسرح الحياة كل منهما يؤدّي دوره على أكمل وجه وباقتدار، ويصفق لهما المخرج والجمهور تصفيقًا حارًّا!

اجتهدتُ كثيرًا في عملي وتحمّلتُ كثيرًا من الضغوط من أجلك أنت وأولادنا.. تحمّلتُ أشياء ما كان لي أن أتحملها و أنا أحيا بمفردي، لن أردد

كلامَ شعاراتٍ أجوفَ، لكنها الحقيقة.. نحن نحيا من أجل أبنائنا فقط لا غير، و أنا كنت على يقين من وصولنا لتلك اللحظة في يوم ما، اختلافنا من البداية كان سيقودنا إلى تلك النهاية.

لحظات من الصمت أتبعَتْ كلماته.. لم أعلّق.. فقط انصرفتُ من أمامه وجلست بمفردي أستعيد حكاية زواجنا.

حاول أن يخرج من هذا الإطار الضيّق الذي نحيا فيه منذ عشر سنوات، وجاهد كثيرًا، ومع الأسف حاولتُ أنا أيضًا، ولكننا كنا نحاول في اتجاه مختلف؛ لذلك لم نتلاقَ ولم نتفق رغم مرور تلك السنوات العشر.

في كل منَّا يسكن مستر جيكل ومستر هايد.. أشخاص متناحرَة متنافرة في نفس وجسد واحد؛ فكل منَّا قد استدار على عقبيه ونكث عهود المحبة والوفاء والإخلاص، و انطلقا في رحاب البحث عن الآخر في مكان آخر وزمان آخر، كنا نتقابل سويا وكلا منا كان يرتدي قناع القديسين والرهبان والملائكة، ثم نخرج ويخلع كل واحد قناعه ليرتدى أخر، نظن أن الطرف الآخر هو المخطئ، لم ينظر أيٌّ منَّا إلى نفسه في المرأة ليرى عيوبه.

– أفتقد الأصدقاء يا زوجتي؛ فكونى لي الزوجة والصديقة والحبيبة والعشيقة، أصبح يشار إليّ بالبنان في عملي.

تذكرت تلك التوسلات منه بحثًا عن حضن يرتمي فيه، باع نفسه في العمل وتواطأ مع الشيطان ليصل إلى أعلى المراتب اعتقادًا أنه يفعل الصواب من أجلنا، ولكنه في تلك اللحظات كان قد خسر الكثير.. خسر أصدقاءَه المقربين، وخسر إخوته، وخسر أهله وبناته وزوجته.. التي وجدَت نفسها وحيدة في المنزل بالأيام تبكي ولا تجد من يمسح دمعها، تتألم من المرض والوحدة ولا تجده بجوارها، تمرّضُ ابنتها ولا تجد من يذهب معها إلى الطبيب ليعالجها، حتى في وفاة والدتها وجدَت نفسها وحيدة، وحضر هو إلى العزاء مثل أي فرد غريب وكأنه لا يرتبط بها بأي

رابط، تقتلها الوحدة وتقتلها رغباتها وشهواتها ولا تجد من يطفئ نار تلك الرغبات، ولا مَن يسمعُ أنين جسدها المتوهج والمشتعل.. فأين كان هو؟!

اختفى من حياتنا تمامًا، وتفاقمَت المشكلات وتحوّلَت حياتنا إلى جحيم مستمر وعراك في كل وقت وحين، وكانت اللقاءات العابرة بيننا تنتهي بمعركة.. تبدأ بمعركة كلامية وتنتهي بمعركة دموية، تعدّدَت علاقاته النسائية و أقسَمَ في كل وقت أنها من أجل العمل، حتى كرهت ذلك العمل بنسائه ورجاله.

زميلته الفتاة الجميلة التي تثير كل من حولها بأنوثتها و أناقاتها تملّكَت منه أيامًا و أيامًا، تعلّقَ بها وعطف عليها لغربتها عن أهلها والعيش بمفردها هنا، تعارفنا سويًّا وأدخلها بيتنا باعتبارها صديقة لنا، رأيتُ حسنَها ودلالها وعرفتُ من نظرات عينيها أنها تدبر له للإيقاع به، وحدث ما توقعت وكانت خيانتهما لي هنا في منزل الزوجية، وعفوت عنه، إلا أنه استمر في نزواته، وغيرها زميلتُه المتزوجة والتي تعاني من مشاكل مع زوجها وتعتبره صديقها المخلص، وترتمي بجواره على المكتب لتحكي له كل أسرارها وما يلمّ بها ومدى معاناتها مع زوجها ومع أولادها، تصلني أخبارهما من أصدقائهما، ولكنني كنت أثق في إخلاصه ووعده بالإصلاح والتوبة، لكنها كانت وعود واهية.. وخيانة أخرى.. وعفو آخر مني ولكنه الأخير، لم يستسلم وترك نفسه لنزواته وشيطانه المريد؛ فتلاعب به وخاض معركة أخرى في خيانتي.

في تلك اللحظات كان الشيطان يتلاعب بنا، حاول أخوه أن يُصلِح بيننا، ولكنه أغواني وأغويته، لم أسعَ في البداية للانتقام من زوجي، لكنها كانت الخطة المثالية بعد ذلك.. أوقعني أخوه في شرَاكِه ووجدتُ عنده الملاذ والمهرب والحضن الدافئ الذي افتقدتُّه، وجدتُّ فيه من روح زوجي؛ فتعلقت به، وأدمنني هو الآخر، وبات كلانا يحتوي الآخر.

- كنتِ حلمًا من أحلامي! عند زواجك من أخي كنت أرى أنني أحق بك منه، لكنه النصيب والقدر، لكنني استعدتُّكِ اليوم، ولن أترك حبي وحقي بعد اليوم، مقاييس الجمال لديك مختلفة عن الآخرين؛ تشبهين آلهة الجمال.. بيضاء البشرة.. شقراء الشعر.. وتشعين نورًا من وجهك، شفتاك مرتعشتان تتمنيان البحو بكل أسرار العشق، وتنادي العشاق للتعلق بهما وتذوقهما، تلك العيون التي تنادي كل الرجال ليركعوا أمامها وليحجوا إليها من كل حدب وجهة.

رقصتُ طربًا معه بعد سماع تلك الكلمات منه ورقصت معه، أخوه يغرقُ في ملذاته وهو يجذبني لأغرق معه في خطايا لا تنتهي.

ولكنني تحسّستُ جسدي وتذكرت كلمات زوجي في تنمره على انحناءاته وتعرجاته و آثار جراحات الولادة عليه، لم يكن ذلك الجسد ينال منه أي اهتمام، كل كلامه دائمًا عنه.. أنه لا يحب مثل ذلك الجسد الممتلئ، و أنني يجب أن أتبع نظامًا غذائيًّا أو أذهب إلى الأطباء، كرهت جسدي بسببه، كان يرفض أن يراني عارية أمامه، لا يتحسس جسدي أثناء اللقاء الحميمي بيننا كما يفعل الأزواج مع زوجاتهم! فقط لقاء لإطفاء الشهوات وإلقاء المياه في الحمم البركانية لتهدأ، أهانني ولكنَّ أخاه لم يفعل ذلك.. لم يذكُر أي عيوب فيّ، بل حوّلها كلها إلى لوحة جميلة، تجردتُّ من كل ملابسي ووقفت أمام المرآة أنظر إلى جسدي وكأنني أراه لأول مرة.

تساءلتُ ما كل هذه الترهلات التي ظهرت فيه؟! ولمَ هذه النتوءات والتضاريس والهضاب والانحناءات في كل مناطق جسدي؟! ما هذه النهود المترهلة وما أبشع تلك الأرداف الممتلئة والمختزنة بالشحوم والدهون! أيقنتُ أن أخاه يحبني لنفسي وروحي فقط لا غير، لم يهتم بجسدي الذي أدخله زوجي في مقارنات مع أجساد عشيقاته وخسرت أمامهن.

سمعتُ أذان الفجر.. أيقنتُ أنه نداء وعلامة للتوبة، خرجت للاغتسال بعد أن تصبّبتُ عرقًا وسال مائي بين أحضان أخيه، عزمت على الصلاة وأن أستعيد زوجي من جديد.

صليتُ ودعوتُ وعاهدتُ الله على بداية طريق التوبة، لم أنَم بعد الصلاة، و انتظرت حتى الصباح و اتصلت بأحد أطباء التجميل لإجراء جراحة عاجلة لاستئصال تلك الترهلات والدهون وتنسيق جسدي حتى يكون مثل أجساد عشيقات زوجي، اتفقنا على الموعد المحدّد، كانت تلك هي المحاولة الأخيرة بعدما حاولتُ مرارًا في عيادات الأطباء والنوادي من أجل استعادة جسدي الذي أهملته من أجل أبنائي وزوجي الذي لم يرُق له هذا الجسد ولا تلك التضحية؛ ففرّ منه، لكنني اليوم سأفعل ما كنت أتجنبه دائمًا، و أتخذ القرار الذي تأجل سنوات وسنوات؛ سأستعيدك مرة أخرى.. سأضحي من أجلك مرة أخرى، لا.. من أجل أن تستمر الحياة لأجل أبنائنا.

- حبيبتي استيقظي.. أستحلفُكِ أن تستيقظي من أجل أبنائك، تقبّلي اعتذاري وأسفي على ما فعلتُه بكِ، أنا الآن أتيتُ تائبًا نادمًا عائدًا إليك، كم أنتِ عظيمة يا زوجتي الغالية.. تضحِّين بنفسكِ وتذهبين لإجراء جراحة من أجلي! أنا أحبك.. أقسمُ لكِ بالتوبة وأن أعود إلى منزلنا وإلى أولادنا، فقط هيا استمري في الحياة.. استمري من أجلنا.

نظرتُ إليه و أنا لا أقوى على الكلام.. ولا الحراك، لقد أخطأ الجراح وأصابني وخرجتُ من الجراحة فاقدة لترهلاتي، ولكن فقدتُ أيضًا النطق والحركة، استمعت إليه وبكيت في صمت؛ فما جدوى الاعتذار والتوبة الآن؟ خلع قناع الغدروالخيانة الذي كان يرتديه، و أنا أيضًا خلعتُ قناعي بعدما عدتُ إلى صوابي وحاولتُ أن أعود إلى زوجي، إلا أن القدر لم

يُمهِلني، خلعت الجزء الزائد من جسدي وخلعتُ قناع الخيانة أيضًا، عُدنا إلى رُشدِنا وسقطَت الأقنعة.

الخاتمة

لم أفقد عذريتي بعد، لقد حافظ على العهد والوعد الذي أقسمنا عليه سويًّا، عرايا كانت أجسادُنا وبراءة الأطفال تبتعد عنا وتفرُّ من بيننا، كبرنا يا أماه وكبرَت أحلامنا، عصرُ كل يوم جمعة كنا نختبئ عن أعين الناس، ونرتمي في أحضان بعضنا، نستكشفُ تغيّرات تحدث لنا، تظهر للجميع في استدارة صدري وفي خشونة صوته، اليوم وجدَتْني جدتي بين أحضانه، نستمتعُ بالحبِّ سويًّا كما اعتدنا دائمًا.. لمسات وقبلات قادَتْنا إلى هذا المصير، ارتعشتُ عدّة مرّات بين يديه وارتجف قلبي بشدة، ولم أشعر بها وهي تخطو بالقرب منا.

رغم صِغَر أعمارنا إلا إنّها لم تكن المرة الأولى لنا.. كنتُ أبلغ الرابعة عشر من عمري، وابن خالتي يكبرني بعامين اثنين فقط، خطٌّ شاربِه بدأ يظهر في وجهه، وعضلاته تظهر وصوته يزداد خشونة يومًا بعد يوم، أول ملامح الرجولة لأول رجل يظهر في حياتي، بدأتُ أتابعُ تلك التغيرات عليه باهتمام، وهو أيضًا تابَعَ ملامحي الأنثوية التي بدأت تظهر عليّ رويدًا رويدًا.. نهداي، جسدي الذي بدأ يتشكّل كأنثى، لم أكُن أُدرِك وقتها أنه يتابعني، وهي أيضًا تتابعنا!

بدأ في التقرب منّي.. تكلّمَ بحديث الحب والعشق، لم أكُن أعرف من الرجال غيره، هو أقرب شخص لي.. أقرب من أخي الصغير، عيناه كانتا توحيان بالحبِّ وأنا لم أكن أدرك ذلك ولم أفهمه، كنّا صغارًا نلعب سويًّا،

نجتمعُ أسبوعيًّا في منزل جدتي الفسيح.. خمس حجرات نخرجُ من إحداها إلى الأخرى ونحن نتسابق سويًّا، أسقف عالية وشرفات كبيرة تطل على شارع هادئ نوعًا ما، أحد منازل القاهرة القديمة.. عبق التاريخ ورائحة الماضي في المكان الذي يمتلئ بنا يوم الجمعة من كل أسبوع اللقاء الأسبوعي للعائلة، تتحدث أمي مع أختها، وجدّتي تستمعُ إليهنّ في حديث نسائي لا أفهم كثيرًا من كلماته، تخرج أمي وخالتي للتسوق وتتركنا سويًّا، أخي يلعب الكرة مع أخيه في الشارع، وتقفُ جدّتي في الشرفة تراقبهما باستمرار خوفًا عليهما وهما صغيرين، إلا أنّ هناك صغارًا غيرهما يكبران سويًّا، وتكبُرُ الأحلام والخطايا بينهما.. والشيطان يحاوطهما، يخرج الأهل من المنزل ويدخل هو معنا، وهي أيضًا اليوم كانت معنا.. لا نراه ولم نرَها.

نختبئ في إحدى الحجرات في المنزل الفسيح، نتسابق ونلعب في تلك الحجرة التي أطلقنا عليها منزلنا الصغير، أحببتُ تلك الحجرة التي أصبحَت بمثابة مسكن الزوجية لنا، نحن في مأمن الآن.. كانت تلك كلماته لي..

– أمي وأمك سيتأخران في الخارج وإخوتنا يلعبون بعيدًا عنَّا، وجدتي تراقبهما في صمت، ونحن الآن في أشدّ الاحتياج إلى حضن يدفئنا.. يطمئننا، دعيني أحتضنك في هدوء ولا تخافي.. أنت حبيبتي.. زوجتي المستقبلية، ألم تقرأ أمي الفاتحة مع أمِّك على زواجنا بعد أن نكبر؟ نحن الآن نكبر، دعيني أفعل معك ما يفعله الكبار، أنا لم أعرف غيركِ من البنات، ولا أريد أن أعرف، أريدُكِ أنتِ.. أحبك أنتِ.. زوّجتُكَ نفسي.. قوليها ولا تخافي.

– خائفةٌ أنتِ الآن وأين كان خوفك وأنتِ تفعلين الخطيئة؟! أين كانت تلك الدموع عندما كان يقبّلك ويتحسّس جسدك، تلك دموع

الخوف؛ لأنكما لا تعرفان دموع الندم.. تستحقين عقابًا أكبر مما فعلت، ابكِي.. سأخبر والديكما.

صرختُ بشدة وجريتُ أقبّل قدمَي جدتي، و أنا لا أستطيع الوقوف أو النظر إليها، عيناي تبحث عنه بعدما...

استمعتُ إليه و أنا في غاية الانبهار به في كل مرة يحدثني عن الحب والعشق، وبكلماته ولسانه العذب كان يقودني إلى دنيا أخرى، طفلة تلهو في بدايات حياة المراهقة لها.. شابٌّ من أقاربها يحبّها ويهتف في أذنها بكلمات الحبِّ لأول مرة؛ فرقص قلبُها طربًا بتلك الكلمات، و اقشَعَرّ جسدها لتلك الكلمات؛ فاستسلمتُ له، وارتميتُ في أحضانه بعدما عصيتُه مرة بعد الأخرى، إلا أنني في النهاية كنت بين يديه زوجة له بدون أوراق رسمية ولا شهود أو مأذون، تزوَّجنا كما كنا نرى في الأفلام والمسلسلات، أغلقنا خلفنا الباب بهدوء وارتمينا على الفراش كما كان يفعل أبطال الأفلام، مرة بعد أخرى أدمنْتُه وأدمنتُ قبلاتِه وأحضانَه، عشقته كما يقولون في الروايات والأشعار.

– أجمل أيام الدنيا تحولت على يديكِ إلى أسوأ أيام حياتي.. و أنا أودّع الدنيا وما فيها أرى تلك الجريمة! يوم الجمعة الحزين.

بصقَت عليّ جدتي بعد تلك الكلمات، كرهَت اليوم بسببنا.. اليوم الذي كنا ننتظره كل أسبوع.. تلتقي أعيننا وترتعش أيدينا.. تناديني شفتَاه فيُقبّلُني وأغمض عينيّ، تمر الدقائق كأنها دهر ونحن في انتظار خلو المنزل لنا حتى يبدأ اللقاء بعد نزول أمي وأمه، نبدأ في ممارسة حياتنا الزوجية.. لا نسمع سوى أصوات قلوبنا، لا ندرك الزمان من حولنا، إن الواقع لنا خيال، والخيال وَهْم، والوهم بدأ يتجسّد في صورة حقيقية، الوقت كالسيف كما يقولون.. نقطعه قبل أن يقطعنا! كنا نعيش في هدوء وثقة ولا يشعر بنا أحد، اعتقدنا أننا في مأمن، أحضانه كانت دافئة

لي في الشتاء ونسيمًا لي في الصيف، أسمعني شعرًا عن الحب والجسد، طفلٌ لنا كان يوسف.. تعاهدنا أن يكون هذا اسمه يوم أن نتزوج، لم نشك يومًا في انهيار الحلم أو اكتشاف أمرنا الذي لم نرَ أننا أخطأنا فيه.. حبٌّ بريء ينمو ويكتمل.

- كنت أشك دائمًا في أفعالكم.. تختفيان عنّي وتظنان أنني سيدة كبيرة في العمر ولا أدرك شيئًا عن الحياة، إلا أنني أُدرِك ما تفعلانه، انتظرت وتحيّنتُ الفرصة حتى وجدتكما في أحضان بعضكما البعض، تناسيتُم الواقع وتناسيتُم الأخلاق والدين، وتماديتم في الخطأ؛ لذلك اليوم ستنالان عقابكما.

تنبهنا إلى صوت جدتي من خلفنا وهي تبصق علينا وتُلقي علينا تلك الخطبة العصماء عن الأخلاق، حاولنا أن ننهض ونرتدي ملابسنا سريعًا، إلا أن يدها كانت أقوى مننا.. صفعتني على وجهي وجثَت فوقي ووجدتُ يدها تعبث فيّ من الأسفل وتقتطع جزءًا من جسدي! لم أشعر إلا وهو بين يديها ترفعه في وجهي وتصرخ فيّ:

- الآن أصبحتِ مختتنة! وسيبقى ذلك اليوم ذكرى لكِ لن تنسيها أبدًا، تلك وظيفتي السابقة يا صغيرتي.. أنا الخاتنة، أمُّكِ رفضَت ذلك الأمر من قبل.. أبَت أن تمتد يدِي عليكِ لتختتنك، ولكنها اليوم سترقص طربًا عندما تعلم أني فعلتُ ذلك عقابًا لكِ عما اقترفتِه من إثم.

صرختُ بشدة ووجدتُ الدماء تنزف مني بشدة حتى ابتلَّت ملابسي وامتلأ الفراش أسفل منّي بالدماء، أما هو فقد اختبأ سريعًا، قفزَ من الفراش وارتدى ملابسه وخرج مسرعًا، وتركني فريسة تنزف بين يدي الخاتنة.

لم أنسَ هذا اليوم أبدًا وظل عالقًا في ذهني، أصبح لديّ عقدة من منظر الدماء، ورعب من ملامسة الجزء المقتطع من جسدي، أجلس أمام جدتي في خوف وفزعٍ ولا أقوى على النظر في عينيها، أضم ركبتيّ على صدري أحمِي جسدي خوفًا من أن تمتدّ يدها وتقتطع جزءًا آخر من أسفلي، كلماتها تتردّدُ دائمًا في أذني بأكثر الكلمات كُرهًا على مسامعي عندما فعلت بي ذلك.

- لا تخافي على جسدك، أفعل ذلك دائمًا.. أنا الخاتنة.

العناق الأول

امتدت يداه لمصافحتي، إلا أنني أَبَيْتُ أن يلامسني كعادتي، تأبَى أن تعانق يداي يداه، فقط أطلق العنان لعينيه وسمحَ لفمه أن يتكلم، أتمنى ملامسته، بل وعناقه أيضًا، إلا أنني أخشى انهياري وضعفي؛ فليبقَ العناق الروحي بيننا فقط لا غير.

ورد أحمر ولفافة هدايا تم إعدادها بعناية تنمّ عن قيمتها الغالية، امتدت يده بها، اليوم عيد الحب وتلك هديتي كما أخبرني.

أسرعتُ أُنادِي على ابني.. تعارفا سويًّا.. مد ابني يداه لتصافح يده بدلًا مني؛ فتلامسات أيادي أحبائي.

نفسُ عينيك ولونهما وسحرهما.. نفسُ جبيني المشرق ووجهي الأبيض المستدير المنير.. نفس الملامح مني فيه.. حتى الشعر ولونه، هذا ما أعلَنه لي، لم ينسني يومًا.. لم ينسَ شعري وتفاصيل وجهي رغم ارتدائي للحجاب منذ أعوام، كما تمنى لي ذلك وفعلت من أجل إسعاده هذا الأمر.

طال الوقوف و ابني بيننا يطيل النظر إليه وهو ممسك بيديه لا يريد أن يفارقها، يشعر أنها قطعة مني، وأشعر بأنامله تخترق يد ابني لتضم أناملي بعدها، همَّ باحتضان ابنِي وتقبِيلِه، وتركته يفعل ذلك تعويضًا عن حرماني منه طوال تلك السنوات، جذب ابني نفسَه من بين يديه و أفلت منَّا وذهب يلعب وحيدًا.

مشيتُ معه خطوات بطيئة لا تحملني قدامي من فرط الخوف والسعادة في آن واحد! أمرني أن نجلسَ سويًّا قليلًا نسترجع ذكرياتنا، جلستُ أرتعش، نظر في عينيّ، فرَّت دمُوعِي وانهمرَت كإعصار.

مد يده لتمسح دموعي؛ فأدرت وجهي مسرعة، لا للتلامس بيننا.. هذا مبدأ اتفقنا عليه منذ أول لقاء بيننا، كان الوعد بالتلامس بعد الزواج الذي لم يتِمّ، وكان هذا هو الوعد الوحيد منه الذي لم يتمّمه.. الاتفاق الوحيد الذي فشل بيننا، اتفقنا على ارتدائي الحجاب والْتزَمتُ به، و اتفقنا على أسماء أولادنا.. عمر مثل اسمه وعلياء مثل اسمي، وألتزمت أنا بهذا الأتفاق.. عمر ابني بيننا.

- حتى الدموع من عينيك ترفض أن تلامس يدي، وجنتاك ترتعشان كشفتَيك الآن.. كلاهما يرفضني، اقترفتُ كل الذنوب والموبِقَات منذ بدء الخليقة إلى الآن عندما تركتُكِ ورحَلت، تزوجتُ ثم خنت زوجتي مع صديقتها، أنجبتُ وأطلقْتُ على ابنتي اسمًا غير علياء.. أنا نبت إبليس، كنتِ أنتِ دائمًا من الملائكة و أنا من حاول أن يغويكِ ويخرجكِ من الطاعة.. من الجنة إلى النار، لم أُفلِح في إغوائك، ولكنني أغويتُ غيرَكِ، لم أحافظ على حبك و أنت المخلصة دائمة، قسَمٌ حنَثتُ به، ووعود لم تُنفَّذ، ودموعك الآن تنزل لتجرَحَ في جسدي الذي أصبح كعقارٍ مشروخ يتساقط فوق رأسي، إعصار من أنفاسك الغاضبة تندفع رياحها؛ فتدمر منازلي وحصوني، انسحبتُ من حياتكِ واخترتُ الفرار من الجنة بدون أن ألتقط التفاحة.

- يكفيكَ ما تعانيه من تأنيب الضمير وعقدة الذنب التي تلازمك، والتي أتمنى أن تكون صادقًا فيها، أن تكون مشاعرك حقيقية كما كانت سابقًا، خدعْتَني وتركتني بلا أعذار.. بلا سابق إنذار.. قتلتني كما قتل الخضْرُ الطفل الصغير الذي لم يعرف لماذا قُتل؟! تركتَ قلبًا بلا نبض..

جسدًا بلا روحٍ، تمنّيتُ لو أرسل يومها ربي عاصفة قوم عاد وثمود تقتلعني من أرضي وترمي بي في غيابات الجبِّ، بحثْتُ عن سفينة نوحٍ للنجاة؛ فتزوجتُ و أنجبتُ و أبرَرتُ بالقَسَمِ و أنجبتُ عمرًا.

انسحبتُ من أمامه في هدوء ومشيتُ تاركة خلفي هداياه على الطاولة، لِملَمَ أشياءه و أتى خلفي مسرعًا، أمسك يدي، لم أقاومه.. تركتُ نفسي بين يديه ولأول مرة يجذبني من يدي، استدرت وأصبح وجهي ملاصقًا له.. أنفاسي قريبة منه أكثر من أي مرة، ارتعشَت شفتاي طربًا ورقصَت شفتاه، ضمّني إليه.. احتضنَنِي بقوة.. عناقٌ بحرارة لم أعهدها من قبل، دقات قلبي ترتفع حتى إن قلبي يكاد يخرج من بين الضلوع، زاغ البصر وطغى.. التحَمَا الجسدان واختلطَت خلايانا، أنفاسٌ متسارعة، مر وقت طويل منذ بدء الخليقة حتى الآن ونحن في ذلك العناق الأول بيننا، لم أكن أعلم أن الحضن دفءٌ واحتواءٌ هكذا من قبل.

- أمي.. أمي.

عمر ابني يناديني.. طفلي الصغير اكتشفَ خيانتي له ولوالده.. اكتشفني بين أحضان حبِّي الأول والأخير، أفلتُّ نفسي من بين يديه وفكَكتُ شفتيّ من بين شفتيه، عناق وأحضان وقبلات، وبكاء طفل صغير يرى أمه خائنة، دفعتُه بعيدًا وركضتُ سريعًا أهرب من إثْمِ العناق الأول.

المقدسية

خطواتي البطيئة تحفروقع أقدامي، وتضع علاماتٍ بأصابعي، في تلك الرمال البيضاء الناعمة التي طالما مشينا وارتمينا عليها.. التي كتبنا عليها أسماءَنا وبنَيْنَا عليها بيوتًا وقصورًا ولكنها كانت بيوتًا هشة، أتى الموج فدمّرَها؛ فما بقِيَ منها شيء، كما لم يبقَ مني أنا أيضًا شيء!

كم كنتُ واهمة، رمال وبحر وأمواج.. هي كل ما تبقى من ذكريات، لطالما مررنا هنا وحلمنا هنا، ولم أكُن أعرف أنكَ تحلم حلمًا آخر غير الذي تحكيه لي.. أنكَ كنت تبني بيتًا آخر غير الذي كنا نبنِيه سويًّا.. أنكَ كنت ترتمي في شاطئ آخر؛ لذلك قررتُ أن يكون مكان نهايتي هو مكان بدايتي معك.

فتاة تصارع الأمواج، أليس منكم رجل رشيد لينقذها مما هي فيه؟! لا أحد يرد.. الوجوه عابسة فقط تنطق بكلمة واحدة.. أنقذوا الفتاة التي تغرق.. ساعدوها، العيون تنظر بأسى علَّها تجد أحدًا في الماء ينقذ من تغرق، البكاء والنحيب عليها يزداد، تتوقف حركة المرور أعلى الجسر وينظر الناس إليها في حسرة وألم وشفقة، الكل في انتظار من ينقذها، وفجأة تنشَقُّ الصفوف عن شاب ضخم الجثة أشقر الشعر أبيض الوجه، ينطلق في سرعة وخفة قاطعًا هذا النحيب وخالعًا قميصه وبنطاله وخالعًا حذاءه؛ ليقذف بنفسه بين الأمواج في صراع بين البحر والإنسان على أمل اللحاق بفتاة من بني البشر يريد هذا البحر الجائع أن

يلتقمها، أمواج عاتية ترفعه ثم تخفضه وهو يسبح ضدها حتى يصل إليها، ويمسكها من يدها بقوة، وهي تبتعد ما بين موج يريد أن يتقاذفها ويلعب بها، وبين شطٍّ يريدُها أن تعود وتمشي على رماله، وبحر جائع يريد افتراسَها ليسدّ جوعه وجوع أسماكه، وهو يجذبها بقوّةٍ وهي تخرّ من بين يديه، صراعٌ امتد لدقائق كأنها الدهر عليه وعلى الو اقفين على الشاطئ، حتى وصل بها إلى بر الأمان، وهنا فقط وجد أيادي أخرى تمتد إليها وتحملها عنه، وسيارة إسعاف تحملها وتسير بها في سرعة جنونية إلى أقرب المستشفيات لمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه منها.. محاولة إنقاذ واحدة من بني البشر تساوي كثيرًا وكثيرًا ولا تُقدّر بثمن.

***

كنتُ أنا هذا المنقذ.. لم أشاهِدْكِ بوضوح، ولم أتعرَّف على ملامحِك، فقط يدي هي التي تلامسَت معكِ وتحاورت مع جسدك، جذبتُكِ من يديكِ وحملتكِ بيد واحدة، وسبَحتُ بكِ مسافة طويلة ، حملوكِ إلى أحد المستشفيات وتركوني قائمًا في مكاني كأنني لم أكن موجودًا ولم يشاهدوني، بكيتُ من فرحتِي بإنقاذِكِ ولم أهتم بأي شيء آخر، إلا أنني أحسَستُ وقتها أن بيننا سيكون هناك لقاء ولقاءات وأحداث أخرى، قلبي كان يحدثني بأنكِ جزء مني، و أنني أنقذتُ هذا الجزء الذي كان سيضيع مني، وكانت تلك بداية تعارفنا سويًا.. لم أتركك بعدها، سألتُ وعرفتُ اسم المستشفى الذي ترقدين فيه و أتيت إليك مسرعًا، يومٌ بعد يوم أنظرُ إليكِ من خلف الأبواب المغلقة، حتى سمح لي الأطباء وأهلك بالزيارة، وتلاقت أعيننا.. ابتسمتِ وأمسكتِ يدي بشدة، أدركت يومها أنك بحاجةٍ لأيّ يدٍ تستندين إليها.. إلى ظهر تحتمي به.. إلى حضن يحتويكِ.

***

ماذا يضير الشاة بعد سلخها؟!

هذا هو أقرب مثلٌ يمكن أن يطلق على الآن، حب فاشل.. محاولة انتحار فاشلة.. زواج آخر فاشل.. الفشل يلاحقني ويحاوطني، امرأة لا مسلمة ولا مسيحية.. لا أعرف!

بعد قصة حب مع مَن كان على نفس ديانتي وجدتُ نفسي أحاول الانتحار بعدما قرر أن يترك كل شيء ويهاجر سعيًا خلف المال وراحة البال.. سعيًا لأن ينأى بنفسه عني وعن المشاكل التي قد أسبّبُها له، اختار الهروب بدلًا من سعيه نحو أن يقاتل ويتمسك بي ويحتويني.. بدلًا من مواجهة أبي والاعتراف له بحبنا، اختار الفرارَ من أرض المعركة.. اختار أن يهرب، وأنا أيضًا اخترتُ أن أهربَ مثله وأبتعد عن الدنيا وما فيها بملذاتها وبشرورها، ارتميتُ في أحضان البحر عسى أن يبتلعَنِي وأن أجد لي مهربًا ومفرًّا وسبيلًا لديه، عسى أن يطهّرَني بمائه المالح من ذنوبي ومن آثامي، ولكن كان القدر يخبئ لي فشلًا آخر.. كان القدر كما تقولون بي رحيمًا، ولكنّني أظنُّه كان عليّ قاسيًا جدًّا؛ فبدلًا من الغرق في مياه البحر، غرقتُ في قصة حب أخرى فاشلة على يديكَ، انتهَت بزواج فاشل وثلاثة أطفال تتركهم لي وتهرب أنت الآخر. لن أستحلفك بالدين ولا بالأخلاق ولا بالحب، لكنني أستحلفك بهؤلاء الأطفال.. أستحلفك بكل الديانات.

***

أنا لم أكن فاشلًا ولا أنتِ أسلمتِ من أجلي.. أنت دخلتِ في الإسلام باعتباره طريقَ الهروب من قصة حبك الفاشلة، أنتِ هربتِ وارتميتِ في البحر من أجل أن تتخلَّصي من كل حياتك وماضيكِ وحاضرِكِ، وعندما أنجاكِ الله على يدي أسرعتِ وارتميتِ في حضن الله، وأدركتِ أنكِ كنتِ بعيدة عن الله تمامًا؛ فأنتِ كنت مسيحية اسمًا فقط ولقبًا ولم تعرفي عن الدين المسيحي شيئًا سوى المظاهر والمناسبات فقط لا غير. لم تعرفي

قيمتَه ولا أخلاق المسيح وتسامحه وصبره على الإيذاء.. لم تصبري أو تتحمّلي، وعندما نجوتِ أعلنتِ إسلامك ظنًّا منكِ أن هذه كانت إشارة أنكِ مخطئة وكنت تسيرين في طريق خطأ و أنت تصوبينه، أسلمتِ اسمًا فقط لا غير.. نطقتِ الشهادة وأخبرتِني أن ذلك كان عن اقتناع منك ورغبة في التقرب إلى الله، و أنا لم أكن السبب ولم يكن لي دخلٌ في هذا أيضًا، أنت فاشلة من البداية والفشل يلاحقُكِ ويحاوطكِ و أنتِ تعيشين في صراع دائم من أجل النجاة من الفشل والرغبة في النجاح، وهذا جيّد، ولكنّكِ لا تستطيعين الأخذ بالأسباب؛ فلا تعرفين لمَ الفشل ولمَ النجاح؟ ولم تحدّدِي اختيارًا أو مجالًا واحدًا لتنجَحِي فيه؛ فهكذا دائمًا تتخبطين.. من مسيحية إلى مسلمة.. من حبيب مسيحي إلى حبيب مسلم.. من فلسطين إلى أمريكا، وبعد هذا الفشل إلى أين ستذهبين؟! لا أعرف ولا أهتم حتى أن أعرف؛ لأنني فاشل في وجهة نظرك، وبالتالي كيف يمكن لفاشل مثلي أن يربّي أطفالًا ويحتوي امرأة عظيمة مثلك؟! امرأة ضحَّت من أجل الحب وعاشت تبحث عنه وفشلت!

***

أنت محق.. سأعود معك لحديث الذكريات من البداية.. أنا لم أدرك وقتها أين كنت وماذا حدث؟! كل ما تذكرتُه أنّني أفقتُ لأجد نفسي ملقاةً على سرير في المستشفى، وحولي أناس لا أعرفهم وأطباء يتفحّصونَنِي، وبعض أعضاء التمريض يُجرون لي بعض القياسات والاختبارات، ومنهم من يطرحِ عليّ أسئلة عن اسمي وسني وعنواني، لم أعي شيئًا بعدها ودخلت في نوبة بكاء، تكلّم الأطباء من حولي بلُغَتِهم العبرية التي أعرفها وأُجيدُها أيضًا، وأدركت منهم أنني في حاجة إلى الراحة قليلًا نظرًا لإصابتي بصدمة عصبية، ولا يمكن لي الكلام حاليًّا، تساءلتُ وقتها وتحدثتُ مع إحدى الممرضات التي وجدتُها عربيّة، وأخبرتني بما حدث لي، و أنني كنتُ في طريقي إلى الغرق وأن بعض الناس أتَوا بي إلى هنا، وأن هناك شابًّا

أنقذني من الغرق، حمدتُ الله ونمتُ بعد أن أخذتُ بعض المهدئات، وحلمتُ بما حدث..

حان الآن وقت الانتحار.. الأمواج تشتدّ وتقترب وتصرخ فيّ كأنها تنادي عليّ.. هيا أقبلي.. اقفزي حبيبتي؛ فأنا البحر حبيبك.. حضنُكِ الذي سيحتويكِ، وأنا الأمواج التي ستغطيكِ، وهذه هي السماء تقترب منا رويدًا رويدًا تناديكِ لتظلّل عليكِ، هيا اقفزي؛ فما ريم الأمواج إلا رداء لكِ، وما ملح البحر إلا عسَلٌ مصفًّى لكِ، سيرْوي عطشَكِ وسيبلّل شفتيكِ، هيا اقفزي؛ فكلُّنا في انتظارك.. رمال البحر وأمواجه وأسماكه وسماؤه، حتى الطّيور التي تحومُ حوله في انتظارك، صلّيتُ ودعوتُ الله وألقيتُ نفسي بين الأمواج، كنتُ يائسة من الدنيا كلها، ولم أكُن أتمنّى لقاءك أو سواك، أتيتُ وتعلّقتُ بك وآمنت بك، وآمنتُ بدينك وأسلمتُ عندما رأيت أخلاق الإسلام وتعاليمه معك، لم أكن أكره المسيحية، ولكني كرهتُ الدنيا كلها من قبْلَك، وأحببتها معك، ثم كرهتها الآن ثانية! أتعرفُ أنت وهو تسيئان للأديان؟! المسيحية والإسلام يتبرآن منكما!

نظر إليّ بعدها وألقى عليّ كلمة الطلاق.. أنا اخترتُها وطلبتها ونفذها لي، وكما لعنت المسيحية من قبله، لعنتُ الإسلام على يديه، بكيتُ وهو ينظر إليّ بلا رحمة ويتهمني أنني فاشلة.. فاشلة في الحب والأمومة والزواج.. فاشلة في المسيحية والإسلام.

أصوات أجراس الكنيسة ترتفع في أذني، كما ترتفع أيضًا أصوات الأذان.. تكبيرات العيد.. أصواتُ إقامة الصلاة.. ترانيم.. تلاوات.. أدعية، كل تلك الأصوات تتراقص في رأسي، وتصرخ فيّ لتذكرني بما حدث.. تذكرني بما فعلتُه من أجل من أحببت، لتذكرني بأنني إنسانة مشوّشَة، تريد أن تؤكد للجميع أنها انتصرَت من أجل الحب وضحَّت بالكثير من أجل الحب، دخان القنابل وأصوات الانفجارات وأحضان من أحبَبتُ

واختبأتُ في حضنه، أغاني فيروز التي استمعنا إليها سويًّا.. بيت المقدس.. قبة الصخرة كنائس بيت لحم.. القدس مدينتي التي شهدَت ميلادي وحبي و انكساري.. انتحاري وإسلامي أَوْلَى بي من غيرها من المدن، إليها سأعود، أنا المقدسية المسيحية المُسلِمة.. أنا التي حطّمَتها الحروب والصراعات وتمزّقَت بين الجيران، تقطّعَت ثيابي وامتدت الأيادي على جسدي، تركني أهلي كما مهملًا، انصرف أبي لشأنه يجمع الأموال ويتاجر مع اليهود ويضع يديه في أيديهم، وجدتُ نفسي أسمع عن حروب مع اليهود وآرائهم في منزلي كل يوم يسهرون مع أبي.. الذي عقد معاهدة صلح و أبرَمَ اتفاق سلام معهم قبل أن يفعل العرب ذلك، ثم أتى من أحبَّنِي واحتو انِي، وقال لي لا شأن لنا بالصراعات فلننعم بالحب! ثم فر هاربًا مع أول محاولة للمواجهة.. تركني من أجل الأموال، انتشلَتِني يد المقاومة لتجاهد بي وتطعن اليهود بي، آمنتُ وأسلمتُ وجاهدتُ وطعنتُ يهوديًّا وقتلته من أجل من أحب، فررنا إلى هنا.. تزوجنا.. أنجبنا.. أصبح طريد الفردوس.. مجرم حرب إرهابيّ مطلوب القبض عليه، اختارَ أن يتركني من أجل استكمال الجهاد المقدس.. عملية تفجير جديدة كان هو منفذها، شهيد في سبيل القضية هنا في أمريكا البلد التي احتوَتنا وفررنا إليها، ومن فرار إلى فرار قرّرتُ العودة إلى أرضي.. إلى القدس، ولكنني سأفعل مثله.. عملية تفجيرية تنفذها المقدسية.

بلا مقابل

لا جديد في الحياة.. أفعل مثلما اعتدتُ عليه كل يوم، خلعت ملابسي أمامها ووقفت أتأمّل جسدي وحدوده.. تعاريجه ومنحنياته التي أحفظُها عن ظهر قلب، وأخذَت هي تُلقِي عليّ أبياتًا من الشعر عن الغزل التي تتحدث عن الحسن والجمال، وانتظرتُ أن أستمع منها مزيدًا من الإطراء، ولمَ لا وهي التي أرشدَتْني إلى ذلك الطريق؟! هي التي أوعزَت إليّ أن أُحسن استغلال هذا الجسد.. أن أتّخذ منه مطية أمتطيها للوصول إلى المجد.. إلى الأموال والشهرة؛ لتعويض ما فاتني من أيام الهوان.

نظرتُ إليها قليلًا وانتظرتُ أن تتكلم، إلا أنّها ظلت صامتة تتأملني، وأنا أيضًا، كلٌّ منا تُصغي لما ستقوله الأخرى ولكنها لم تتحدث، صرختُ أُنادِي عليها ولكنها لا تجيب، تبادلني النظرات في صمت ولا تنطق، ارتفع صوت صرخاتي مرة أخرى أحثُّها على الكلام والرد عليّ، لكنها لم تفعَل، قذفتُها بكوبٍ كان أمامي تهشّم عليها ولم تتحرك أو تتأثر، لكمتها بيدي فتألمتُ أنا وهي وبكينا سويًّا.

– أنتِ مريضة.. تلك أوهام لا أحد يتكلم أو يتحدث معكِ، أنا طبيبُك ويجب عليّ أن أخبرك بتلك الحقائق.

نظر إليّ متعجبًا مما أقوله، وأمسك يديّ، تألّمتُ بشدة من الجروح التي بها من أثر اللكمات، وعاد يلقي عليّ كلمات الأطباء:

- اهدئِي قليلًا ولنكمل ما بدأناه.. أنتِ تُقسِمِين أنها تتحدث إليكِ، و أنا وأصدقاؤكِ لا نرى سوى أن ذلك يحدث في مخيلتك فقط.

ثم عاد إلى تدوين ملاحظاته في دفاتره التي يُغلق عليها مكتبه، ولكنه خرج مسرعًا بعد أن أتاه هاتف؛ فترك تلك المفكرة وقرأت ما فيها:

"تألمتُ بشدة و أتَت إليّ ويداها بها جروح متعددة من أثر اللكمات، بكَت وهي تستند إلى الحائط، وكالعادة أقسَمَت لي أنّها تتكلم معها، رغم أنني وكثيرون غيري نرى أنها... لم تتكلم من قبل إلا في مخيلتها فقط، لكنها ما زالت تصمّم أنها تتكلم معها وتبادلها الأحاديث، تحدّثَت عن ذلك مع الجميع؛ فأنكروا قولها واتهموها بالجنون، حتى أنا اتّهمْتُها بالجنون، لكنني كتمتُ ذلك في نفسي، كنت أتركها تتحدث وتخلع ملابسها وترقص عارية، أراودُها عن نفسها وكأنني أنا صديقتها التي تنظر إليها، أقنعتها أنني أنا مرآة حقيقية لها، و أنّني صديقُها المخلص الذي لن يخونها يومًا، آمنَت بي وبرسالتي.. ووهبتني نفسها، ولمَ لا فأنا رسولها الأمين؟!"

عند تلك الكلمة بكيتُ بشدة، وعاد من الخارج؛ فتركت الدفاتر في أماكنها وقررت أن أصارحه بما قرأتُ، إلا أنّني لم أستطع، نظر إليّ فعدتُ أقصّ عليه قصتي مرة أخرى..

"أقسمُ لكَ أنها تتحدث إليّ وتكلّمني، وتأمرني أن أخلع ملابسي أمامها هكذا كما تراني أنت الآن، خلعتُها قطعةً قطعةً ببطء كما أمرَتْني مثلما أفعل معك، ثم استدارت لتراني من الخلف.. تحسّسَتْني.. قبّلَتني واحتضنَتْني، أنفاسُها الساخنة تلفَحُني، العناق بيننا طويل والقُبُلات لا تنتهي، أدمنْتُها وملَّكتُها جسدي"

التفتُّ إليه فوجدته يقترب منّي، يقبلني بعدما تعرَّيتُ أمامه، يمسكُ يدي ويأخذني إلى الفراش، استلقَيتُ عليه بهدوء كما أمرني، وأغمضتُ عيني وتركتُ جسدي له يفعل به ما يشاء.

تألمتُ بشدة في أوّل مرة، إلا أنني اعتدتُ على الأمر بعد ذلك، تعجّبتُ مما أنا فيه؛ فكيف لها أن تعانِقَني وتقبّلُنِي وتتحسّس جسدي؟! نظرت إليها وتحسّستُها أنا أيضًا.. بحثت عن يديها.. شفتيها.. عنقها.. حضنها، إلا أنني لم أجد ذلك! لكنّني كنتُ أشعر بها.

ساحر مجنون.. هذا هو الوصف الذي أطلقَه أصدقائي وأهلي عنّي في بادئ الأمر، لم يؤمن بي أحد إلا أنت.. أتيتُ إليكَ فدثَّرْتَني واغتسلتُ على يديكَ بعدما احتويتني وارتشَفْتَ من شفتيّ ونهديّ ونهلْتَ منهما، وأدركتُ يومها أن ما شعرتُ به معها كان و اقعًا وليس خيالًا؛ فكل ما فعلناه سويًّا فعلَتْه معي قبلك، جئتُ من بين يدَيها مهرولةً، وتلقّفتَنِي أنت وأطفأتَ نار شهوتي التي أشعلَتها هي، نهضتُ مسرعة وارتديْتُ ملابسي وتركته.. وذهبت إليها!

ها هي المرآة لا تنطق ولا تتكلم؛ فبكيت وازداد غضبي، كم تمنّيتُ أن تحتضنَنِي كما كانت تفعل في كل مرة، تضمُّني إلى صدرها؛ فأنا أبحثُ عن الحضن الدافئ والأمان، الذي لم أجده إلا معها، كلُّهم أحبوا جسدي فقط إلا هي.. وهو أيضًا! خرجتُ من بين أيدِي الطبيب وتذكّرتُ يديه هو.

ارتجف جسدي بشدة، لقد تذكّرتُه وهو الذي لم ينسني قط، فقد سمعتُ صوتَه يأتي خلف الباب يلهثُ.. يطرقه بيديه الحانية، فتحتُ له دون أن أرتدي ملابسي؛ فارتمى في حضني وأحسَسْتُ بدفء أنفاسه، أحاطني بكلتَي يدَيه.. يقبّلُني، أحسستُ دائمًا بالصدق في عينيه؛ فهو الصديق والحبيب، هو أوفَى من الناس.. هو الوحيد الذي يعشقني فعلًا بلا مقابل.. يحبني فعلًا لنفسي ليس لجسدي، هو المُحبُّ المخلص،

ومرآتي هي حبي الوحيد، نظرتُ إليها ووجدتُها منكسرة حزينة وآثار لكماتي عليها.

خرجتُ من الحمام وأسرعتُ في ارتداء ملابسي، وضعتُ الأكل له، قبّلتُه مرة أخرى وقبَّلتُها هي أيضًا، وتعطَّرتُ بعطرِي المميز. سأذهب إلى أحضان من يدفعون لي المقابل لأشتري له أكلًا وأشتري مرآة جديدة.. أتحصَّلُ على المقابل لأُعطِيه لمن يحبّني بلا مقابل.

دموع سانت تريزا

استيقظتُ اليوم متأخرة على غير عادتي، فتذكرتهما على الفور، جريتُ مهرولة إلى الشرفة؛ فوجدتهما في حالة من السكون والصمت، نظرا إليّ في استياء وارتفع صوتهم.. إنهم جوعَى ينتظرون الحبوب التي أُلقِيها إليهما كل يوم في قفَصِهم المعلق على الحائط، لقد نسيتُ أن أُلقيَ عليهما نظرتي اليومية قبل النوم بالأمس.. عدتُ متعبة وارتميتُ على الفراش.

اعتذرتُ لهما عن تأخّري عليهما وقدّمتُ لهما وجبتَهُم المفضلة، ووضعتُ لهما الماء، انطلَقُا مسرعِين يلتهما الحبوب الصغيرة ويشربا بنهم وشغف، ويطلقان صيحاتهم وأغانيهم الجميلة، نظرتُ إليهما في تعجُّب.. حياتُهم بسيطة.. أكل وماء وغناء، يبتَسمُان ويضحَكا حتى وهما في الأسر.. عصفوران صغيران يُؤنِسان وحدتي، هما أصدقائي الحقيقيون، بل هم كلّ حياتي في وقتٍ ابتعد فيه الجميع عني، ووجدتُ نفسِي بلا سند وبلا أنيس.. وجدت نفسي عارية أمام الزمان والكل يشاهد جسدي ويتلذّذ بمفاتنه ويمد يده لينال منه، اكتشفْتُ أنّني عارية بالفعل وأعين الجيران تنظر إليّ الآن من شرفاتهم العالية، كما نظروا إلينا ونحن نعود من الكنيسة.

- انتقلَت إلى الأمجاد السماوية.

هكذا نطق أحد أقاربي ليُعلِن لي وفاة أمي..

– هيا يا صغيرتي سنذهب للصلاة على أمِّكِ ثم المدافن، أَلقِي عليها نظرة أخيرة قبل النزول.. ربنا يعزِّيكِ.

ذهبتُ معهم إلى الكنيسة أُصلِّي عليها كما علَّمَتْني طقوس الدين والعبادات من قبل، لم أدرِ أأبكي عليها حزنًا أم أدعو لها بالغفران وأن تجاور المسيح! أذنبَت أمي في حقي.. هذا هو ما أعلَنتُه للجميع يومها، وتلقَّيتُ بعدها وابلًا من التوبيخ واللوم وتعليمات بعدم التحدّث بمثلِ تلك الطريقة غير اللائقة، ألقوا تعليماتهم كما كانت تفعل أمي من قَبْل.. تُجلسِني أمامها وتصوّب عينيها في عيني، وتمسك يدي ثم تُلقِي عليّ طائفة من الأنباء والقصص والعبر والعظات عن الشهداء والقدِّيسين، ثم عن كيفية الحفاظ على جسدي الذي بدأَت تتشكل ملامحُه الأنثوية، وتوبيخًا لي بنومي عارية حتى لا يأتي الشيطانُ ويمارس معي ممارسة تُوقعني في الخطيئة!

تذكرتُ الآن أنني قد اعتدتُ على النوم هكذا بلا ملابس.. عارية كما ولدَتْني أمي منذ أن أدركتُ أن جسدي سلعة والكل يبتغيها؛ فقرَّرتُ أن أتعرَّى أمام نفسي فقط لا غير؛ لكي أجعل نفسي تشعر بأهميتها وأهمية هذا الجسد، وأنه ليس سلعة بل هو شيء مقدس ونفِيس، هذا الجسد الذي يتهافتون حوله هو فقط.. لا حولي أنا.

لم أخشَ أعيُنَ الجيران التي تُحملِق فيّ.. وضعتُ يديّ على صدري، وضمَمتُ قدمي لأُخفِي ما ظهر من أعضاء جسدي التي يُطلِقون عليها عورةً أحيانًا وسوءة أحيانًا أخرى، وأنهيتُ واجبِي نحو أصدقائي اللذَيْن انتهيا من طعامهما سريعًا ودخلا في نوبة من اللعب والجدال معًا، تذكّرتُ وقتها أنّني أهملتُهما عشر ساعات فقط لا غير، فماذا حدث لهما؟! ضربهما الجوع والعطش والحزن.. فكيف لي أنا وقد أهمَلُوني سنوات؟!

شكيتُ لهما ما فعله معي الزمان، وألقيتُ عليهما السلام، وعُدتُ مسرعة إلى غرفتي وتركتُ أعين الجيران من حولي معلّقَة بشرفتي ينتظرون أن تخرج إليهم العارية مرة أخرى، كما يطلقون عني في هذا الحي.

– لم تكن أمك باغية ولم يكن أبوكِ امرأ سوء.. أحببتُه بصدق واخترتُه من بين كل رجال الحي والكون ليكون لي زوجًا ولكِ أبًا، عليكِ الذهاب إلى الكنيسة للاعتراف والاستغفار والتطهُّر من الذنوب يا مريم.

– سأذهب يومًا ما يا أمي.

كان هذا وعدي لها الذي تحقّقَ يوم وفاتها.. ذهبتُ وصلَّيتُ وعُدتُ أُلقِي خطبة وعظةً على أقاربي:

– أمي مذنبة، و أبي أيضًا، هذا ماجناه عليّ أبي وما اقترفَتْه أمي.. و أنا الآن بلا هوية.

– اصمتي يا مريم.

نظر لي الجميع باستغراب وكلمات من الاستهجان انهالَت على مسامعي.

– مريم.. هذا الاسم الذي اخترتُه أنا و أبوكِ لك.. وعليك أن تعرفي قيمة ومكانة هذا الاسم المقدس...

قصة أخرى ترويها أمي عن اسمي، اختاروا لي اسمًا وسَطًا بين الإسلام والمسيحية.. يحيا الهلال مع الصليب، هرب الهلال خارج البلاد لا نعرف عنه شيئًا، ومات الصّليبُ ومكانه في قلبي فقط.. لا أثر له على يدي، مسيحية اسمًا وعبادات بلا ملامح تدل على ذلك أو علامات، ومسلمة اسمًا وعبادات أيضًا، وبلا ملامح تدلّ على ذلك، وكثير من المصريات كذلك تحسبنا أحيانًا مسلمات وأوقاتًا أخرى نبدو مسيحيات.

شابٌّ مسلم أحب فتاة مسيحية وتزوّجا ولم يغيّر أحدهما دينه ولم يعترف بهما أحد، لاقَى أبي معاناة شديدة في عمله مع أشقّائِه في تجارتهم بعد هذا الزواج المرفوض لديهم، حتى فاض به الأمر وسافر إلى العراق للعمل ولم يعد، و انكسر ظهر أمي.. اعتبرَتْه هاربًا ولم تعترف بفقدانه أو موته، لم تشعر يومًا أنه مات.

– هربَ يا مريم.. لم يمت.. لم يعُد له وجود معنا، ضحَّيتُ من أجله وآمنتُ به، وتمنّيتُ أن نحارِبَ الدنيا سويًّا، إلا أن قواه خارَت مبكرًا.. سطوةُ أعمامك ونفوذهم وحروبهم له أفقدَتهُ صوابه، حتى ترك لهم الجمل بما حمل كما يقولون.

نظرتُ إليها ودافعتُ عن أبي في غيابه، افتقدته كثيرًا ولعنتُ إخوته، وحُرمت دفئهم وحضنهم وأموالهم، ولاقَت أمي أيضًا معاناة في عملها، ولم تتقبَّلْها العائلة والكنيسة إلا بعد فرار أبي للعمل في الخارج على أمل العودة.

– الصلاة يا مريم.. الصوم يا مريم.. رمضان كريم يا مريم.. صلاة العيدين.. هذا ما كنتُ ألقاه مع أبي.

ونفس ذلك هو ما لقيته مع أمي.. نفس الكلمات تقريبًا.. الصلاة الصوم الاستغفار الاعتراف، حتى أصبحتُ بلا هوية.. دُمْية في أيديهما.

– أنا مسلمة يا أمي.. أبي علمني الصلاة والصوم.

نظرَت إليّ وجذبتني من يدي، ثم صاحت في وجهي:

– تركَنا وسافر.. هرَب يا مريم، لا أحد سيعُلِّمُكِ أي شيء في الإسلام بعد ذلك، أنت معي مسيحية.. هيّا بنا.

لم يقسُ عليَّ أبي يومًا، كان بي رؤوفًا رحيمًا.. أمرني بالعبادات وعلّمنِي إياها، ولم يخيّرني يومًا بين الإسلام والمسيحية، بل كان مبدأه أن أعرِفَ كل شيء عن الأديان حتى يُمكنني اختيار أحدهما بمنتهى الحرية، لم يعِب في المسيحية يومًا، بل كان يتلو عليّ سورة مريم كثيرًا، ويقُصّ قصص المسيح و أفضاله وخصاله وأخلاقه.. كما كانت أمي تفعل أيضًا في البداية، ولم تعِب يومًا على الإسلام بأي كلمة أو صفة، إلا أنها بعد غيابِ أبي خافَت أن تتركني بلا دين.

بين مسجد وكنيسة يقع منزلنا.. أسمع أصوات الأذان وقرع أجراس الكنيسة، كنت أستمتع بصلاة العيد في الشارع مع أبي والجيران في مسجد الخازندارة، ثم انتقلتُ إلى الكنيسة مع أمي.. أسمعُ صوتَ الرهبان وترانيمهم الجميلة في كنيسة القديسة سانت تريزا التي يتبارَك بها أهل الحي كلهم ويزورنها مسلمون ومسيحيون؛ إذ أنني لستُ مسيحية عادية أيضًا، بل أنا من الكاثوليك.

نظرتُ إلى صورة أمي وأبي المعلّقة على الحائط وبكيتُ، شعرتُ ببعض الهواء يتسرب إليّ، تذكّرتُ أنني ما زلتُ عارية كما ولدَتْني أمي، وكما تركتني لأقاربي وجيراني الذين لم يحاولوا تغطية جسدي، بل ازدادوا في تعريته.. أعمامي يرفضون الاعتراف بي، وأهل أمي يلفظونَنِي وكأنّني طفلة لقيطة مهملة مُلقاة على باب المسجد أو الكنيسة اللّذَين كرهتهما، ولم أعرف إلى أيهما أذهب الآن؟! أسرعتُ لارتداء ملابسِي وتناولي إفطاري، أمسكتُ قيثارتي وعزفْتُ عليها ألحاني الحزينة، وأعددتها في حقيبتها للذهاب إلى عملي كعازفة في الأوبرا، قيثارَتِي هي الوحيدة التي تتحدث إليّ وتُنادي باسمي.. هي وصغيراي في الشرفة، دخلت عليهما وقبّلتُهما قبلةً في الهواء، ووضعتُ لهما مزيدًا من الطعام، بعض الجيران ما زال في الشرفات العالية المجاورة لمنزلنا الصغير الذي يقف وحيدًا قصيرًا بين كل المباني الشاهقة من حولنا، كل المباني

القديمة تمَّ هدمُها و أُنشِئَت مكانها مبانٍ شاهقة.. إلا منزلنا الذي يأويني، ما زال تائهًا صامدًا وحده بين الحداثة من حوله، ما زال مثلي وحيدًا.. تتلصص عليه الأعين وتراه عاريًا مثلي.

شارع شبرا أمامي.. عبق التاريخ كله، المسجد والكنيسة جيران لي.. رغم كرهي لهما الآن! إلا أنهما هما الملاذ الوحيد الآمن لي.. هما الوحيدان اللذان لم يلفِظاني ولم يطمَعَا فيّ، هما سِتري في وقتٍ تعرَّيتُ فيه أمام الجميع، حتى أمام نفسي.

أغلقتُ الشرفة من خلفي، وأمسكتُ حقيبة القيثارة وذهبتُ إلى المسجد ألقي نظرة عليه من الخارج و أقرأ الفاتحة على روح أبي الطاهرة، وأعلن غفراني له لما اقترفَهُ في حقي، ثم ذهبتُ إلى الكنيسة أُصلِّي وأدعو لأمي.. وأحقّقُ رغبتها وأدخل كنيستها أعترف وأتوب وأصلي وألتمس البركة من سانت تريزا، انهمَرَ الدمع من عيني و أنا أجثو على ركبتي أمام صورة السيدة العذراء، أمسكْتُ صليبي وقبّلتُه وجدتُه مبللًا.. نظرت حولي؛ فوجدتها تبكي من أجلي.. أدركتُ وقتها أنها دموع سانت تريزا.

تحت ظلال الأشجار

اقتربَ مني حيثُ أجلس على طاولتي المعتادة تحت ظلال الأشجار أحتسي فنجان القهوة الذي يقدّمُه لي النادل باستمرار في نفس الموعد كل يوم، أسكنُ في عزلتي رغم الضجيج من حولي، ولكنني آثرتُ الاختلاء بنفسي يوميًا هنا.. أتأمّل الكون من حولي و أتذكر أيامًا لن تعود، لكنه اليوم جاء اقتحَمَ عليّ تلك العزلة والسكينة، جلس في المقعد المواجه لي، لم يُمهِلني الوقت لكي أرحّبَ به أو أن أرفض حتى وجوده، نظر في عينيّ وتحدث.. بدأ يسرد عليّ قصة من رواياته التي كتبَها عنّي كما أخبرني بذلك، ثم أتبعها بإلقاء أبيات من أشعاره التي تصِفُني وتتغزّل فيّ مثلما كان يفعل سابقًا.

كعادته نثر سحرَه في المكان وأدهشتني تلك المقدمة منه، أنصَتُّ إليه في اهتمام وترقب كما كنتُ أفعَلُ دائمًا، ثم سكت وبكى، انتظرْتُ أن يأتيني صوته من جديد.. هذا الصوتُ الذي يأخذني من مكاني إلى مكان آخر، لم أكُن أشعرُ بالوقت معه.. لا ملَل ولا ضجر من حديثه الشيّق.. عن عشقه لي وعن حبه لكرة القدم وناديه المفضل الذي يشجعه.

أحببت الكرة من أجله، وقرأت الشعر الذي كتبه لي مرات ومرات، واحتفظتُ بأوراقه القديمة التي كتَبَ فيها أشعاره عني، نظرت إليه متسائلة عن سبب بكائه وعن سبب مجيئه إلى هنا؟ كيف عرفَ بأمر

وجودي في هذا المكان الذي اعتدتُه منذ سنوات؟! وهل كان يراقبني طوال تلك السنوات أم أنه التقَى بي مصادفة اليوم؟

– أنا على عهدي بكِ ووعدي الذي قطعتُه من أجلكِ، لم أحبّ سوَاكِ ولم أعشَق سوى عينَيك، ولم أنسَكِ يومًا.. أنا أبحث عنكِ دائمًا منذ سنوات وسنوات، وكنتُ على يقين بأنني سألقاك يومًا ما، وقد تحقّق لي ذلك الآن.

لم أستطع أن أستمِر في صمتي وسماعي لتلك الأكاذيب، أمرته بالصمت والسكوت، إلا أنه استمر في الكلام، لقد أقسم لي منذ عقود ألّا يتركني مهما حدث، عند تلك الكلمة ارتفعت نبرة صوتي:

– إنك كاذب.. أي عهود تلك و أنت تركتَنِي وهجرْتَني؟! أي عهود تلك و أنا لم أرَكَ منذ سنوات تألّمتُ فيها وبكيتُ و أنا في انتظارك و أنت تهجر وتنسحب في هدوء؟! تسكبُ نارًا في روحٍ وتشعلها وتحرقها وتذهب!

أمسك يدي ودعاني للهدوء، واستكمَلَ حديثَه أنه يراقبني في صمت، أعلن أنه حاول أن يتحدّث إليّ كثيرًا، ولكنّه يعجز عن الكلام عندما تحين الفرصة.. أنه يبكي كلما رآني من بعيد.. يبكي على ضياعي من بين يديه بقرارٍ منه اتخذه ويندم عليه، أعلن اعتذاره، طلبَ منّي العفو والغفران والسماح، أعلن توبته عن هجرته لي.. وأن بكاءه ندمًا الآن يعود إلى ذنبه الذي اقترفه في حقي.

– تركتني و أنا أحبك.. تركتَنِي و أنت لم تحاول أن تتمسك بي.. تركتَنِي وهجرتَ بيُسرٍ، ولا أدْنَى اكتراث لما قد تفعله فيّ، اتركني الآن كما تركتني من قبل.

لم ينطِق، ولكنه بكى مرة أخرى، عمّ الصمتُ المكان؛ فهمَمْتُ بالوقوف لأُنهِي تلك المقامرة، إلّا أنه أمسك يدي مرة أخرى وجذبني

لأجلس، نظرتُ حولي لأرى أعيُنَ كثير من الناس في المكان، ومنهم من يعرفني ويعرف زوجي، خشيتُ أن يكون أحدهم رآنا على وضعنا هذا؛ فأبعدتُ يدَه عن يدِي وجلستُ مبتَعِدَة عنه قليلًا.

– تركتكِ في منتصف الطريق خوفًا عليك، أدركتُ وقتها أن لا مكانَ للحب في زمن المادة والأموال، أدركتُ وقتها أن حبَّنا سيموتُ سريعًا، وأنتِ ستقتلينَنِي بالبطيء إن استكمَلْنا رحلة حياتنا سويًّا، أدركْتُ أنّني سأمنحُكِ تعاسَةً وحزنًا، ولن تجدي معي السعادة التي كنتِ تحلمِين بها، أدركتُ أنّ أحلامَكِ سيتم وأْدَها معي.. أنّ القدرَوضع العائق المادي بينَنا حتى لا أتسلقه أو أتخطاه.. حتى تبقِي بمفردك بعيدًا عني، تركتُكِ من أجلك.. من أجل سعادتك.. من أجل أن أهِبَكِ حُبًّا يدومُ ولا ينقضي، تركتُكِ وأنا أبحث عنكِ من يومها، عملًا من بعده عمل.. سفر وغُربَة وتِرحَال حتى أتخطَّى الحاجز الذي وضعه القدر بيننا، إلا أن الزمان كان أسرع مني دائمًا.. كلما اقتربتُ منْكِ خطوةً ابتعدَ بكِ الزمن عني، وكأنّني غريقٌ يجاهِدُ في البحر ليصل إلى الشاطئ الذي يراه يقترب رويدًا رويدًا، ثم يأتي الموجُ ليقذف بي بعيدًا عنه مرة أخرى، عقودٌ مضَت وأنتِ في مخيّلتِي لم تفارقيني، اسمك كتبتُه على جبيني.. ورسمُكِ محفور في ثنايا قلبي، أنا عائدٌ إليكِ الآن طالبًا الصفح والرحمة.

– أنتَ لم تبحث عني.. أنتَ تركتني وفرَرتَ، أنت خائنٌ جبان لا تقوَى على المواجهة، لو كنتَ أعلنتَ قرارك لي بكل شجاعة.. لو كنتَ أعلَنتَ رغبتك في أن أنتظِرك لانتظرتُكَ سنوات وسنوات، لكنك انسحبت من أرض المعركة لم تقاتل كالرجال، أنتَ لستَ فارسًا.. أنت جبان، والآن دعني وشأني وانصرف، أنتَ صفحةٌ في حياتي وانتهت، ليس لديّ الوقت أو الجهد لأكتب فيها مرة أخرى، أنا أعلمُ عنكَ كل شيء.. بحثْتَ عن المالِ وسعَيتَ خلفه.. تزوَّجتَ من امرأة أكبر منك بسنوات تملِكُ الأموال

والنفوذ، حتى أصبحتَ ما أنت عليه الآن.. رجلٌ ثريٌّ يبحث عن حلمه القديم ليشتريه، لكن مع الأسف لستُ أنا تلك السلعة، خسرتَ البيع يا من كنت حبيبي.

لم يعلِّقْ، نظر إليّ ساكنًا؛ فنهضت من مقعدي.. تركتُ قهوتي وطاولتي.. لململتُ أشيائي وغادرت المكان.

نظرتُ إليه من بعيد؛ فوجدتُه ممسكًا رأسه بين يديه لا يقوَى على النهوض من مقعده، كانت كلماتي نصالًا حادّة شقَّت قلبه ومزقته، بكيتُ مما اقترفتُه في حقه وما اقترَفَه في حقي أيضًا، أدَرتُ رأسي ومشِيتُ مسرعة الخطَى لأهرب من ضعفي وخوفي من العودة إليه ومسامحته، إلا أنني رأيتُ أناسًا يُهرْولُون في مواجهتي ويصوّبُون أعينهم في نفس المكان الذي كنتُ فيه، وسمعت أصواتًا وضجيجًا من خلفي، وقفتُ وعدتُ ألتَفِتُ خلفي؛ فوجدته معلقًا ومتدليًّا في أحد أغصان الأشجار.. أنهى حياته بعد أن رفضتُ الاعتذار! كان انتحارُه تحت ظلال الأشجار.

ثورة جسد

لقد اكتفيتُ اليوم من تلك القبلات والأحضان، دعني أرحل الآن على وعدٍ بلقاء قريب.. يكفيك ما رأيتَه وما لامسَتْه يداك، أنت الآن تخرق الاتفاق والعهد الذي بيننا.. الثقة بيننا هي سر النجاح في علاقتنا، أنا لا أستطيع أن أحيا بدون قبلاتك وعناقِكَ لي، لقد وقع جسدي أسيرًا لك وسقط في بئر إدمان تلك العلاقة؛ فلا داعي للقلق والازدياد في إتياني من كل حدب وصوب، كان الاتفاق بيننا أحضانًا وقبلاتٍ فقط لا غير، ما زلتَ شابًّا يافعًا في مرحلة النضج والأيام بيننا قادمة وكثيرة، وستنال مني المزيد يومًا ما، ولكن عليك أن تحافظ على أن أظَلّ عذراء في نظر الجميع، وعليكَ أن تعلم أن كلًّا منا سيحتاج للآخر كثيرًا، وكلًّا منا يملك سرَّ الآخر وعلينا أن نحفظ أسرارنا، والآن اخرُج و اتركني أستكمل ارتداء ملابسي.

لا تخافي.. هيا اقتربي مني.. اجلسي بالقرب مني، أنا أحبُّك، أنتِ الآن تكبرين وجسدكِ يثور ثورة عارمة، ويحتاج إلى أيدٍ حانية تدلّل تلك الثنايا وتمسح على تعاريجه بهدوء، لا تخافي لا يرانا أحد، ولكن اعلمي إن بُحْتِ يومًا بما فعلته بك وبما رأته عيناي ولامسته يداي من جسدك؛ فلن يصدقك أحد؛ فأنا في نظرهم الشيخ الورع التقي.. زوج أمك الذي يحنو عليك وأعمل على تربيتِكِ بدلًا من أبيك الذي مات وترككِ أنتِ وأختك لي.. حملًا وحلمًا؛ فدعيني أنهلُ من جسدك الناعم البرعم الذي ينمو

ويحتاج إلى ماء يرويه، دعيني أستردُّ حقي وما أنفقته من أموالٍ عليكِ وعلى أمك وأختك.

بعد انتهاء لقائي بك كان عليّ الرحيل وأن أعيش مع ذكرياتي الأليمة، سأدخلُ منزلي وسأغلِقُ عليّ باب حجرتي وسأبكي وحدي على وسادتي، وسأتحسّسُ جسدي كما تفعل أنت معي يا صديقي في كل مرة، سأتذكّرُ طفولتي التي تم هتكها على أيديهم وجسدي الممزق بينهم، أقاربي الذين خانوا الأمانة واستحلّوا جسدًا بريئًا لطفلة تلهو عندهم! حتى اعتاد الجسد على هذا اللهو واستأمنتُك عليه؛ فلا تكن مثلهم.

تركته مسرعة وغادرتُ منزله، مشِيتُ وحدي في الشوارع أُشاهد الفاترين وزجاجها اللامع الذي لا أرى ما بداخله من ملابس أو أحذية، فقط أراني وهم حولي يضعون أيديهم على جسدي.. يتحسّسُونه، كلما مررت بتلك الفاترين كلما رأيتهم؛ فابتعدتُ عنها وجلستُ على أحد المقاهي بالقرب من ميدان التحرير أتناول قهوتي وأشعل سيجارتي.

عيناك تحمل كل معاني البراءة.. وتلك الأعين تجذبني نحوك، أنتِ لسْتِ طفلة الآن.. إنّكِ أنثى.. فتاة ناضجة.. جسد رشيق منحوت باهتمام لم تلمسه أي أيد من قبل، والآن لامَستُه وعانَقتُه وتذوّقتُ شفتيك ولن أتركك ما حييت، تأتي أمُّكِ تلاطفني وتداعبني وأحاول أن ألمسها و أتحسّسها وأخمد ثورتها، إلا أنّني أجدها أرضًا تشقَّقَت وجفَّت ما عاد يجدي فيها ماء ولا حرث، دعيني أحرثُ أرضَك بهدوء وأحافظ عليها، لقد كرهت جسدها.. وكرهتها! أنت سبب بقائها إلى الآن هنا.. تعيش من أجلك، و أنتِ عليكِ أن تعيشي من أجلي ومن أجلها.

ما زلتُ أشعر بيده تتحسّسني.. ما زلتُ أشعر بيديه ترفَع عنى غطائي وجلبابي في الليل، تمتد بحذر لتَصِل إلى أبعد نقطة في أي امرأة، هذه اليد التي طالما تمنّيتُ أن أقطعَها وأمزّقها إربًا، تلك اليد لهذا الوحش المتمثل

في صورة إنسان، هذا الرجل الذي مرَقَ إلى دنيانا بعد وفاة والدي، لم تتحمّل أمي تلك المأساة المتمثّلة في وفاة أبي، وهالها أنها ستعيش وحيدة بدونه، أو هكذا تخيّلتُ وأنا طفلة بعد وفاة أبي أنّ أمي ستموت حزنًا عليه، لقد بكَت حتى ابيَضَّت عيناها من الحزن.. وفعلتَ مثلما أفعل أنا الآن، دخلتَ حجرتَها وتحسَّسْتَ نهديها وشفتيها، وأحسَّت بالظمأ وطلبَت الارتواء؛ فكان الدواء على يد هذا الشخص.. الذي أقنعها بكونه سدًّا وحصنًا منيعًا لنا، وأنه عنوان الأمان لي ولأختي ولأمي؛ فارتمَت بين أحضانه وتزوّجَته واستأمنته على بناتها، أنا التي لم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمري بعد وأختي ذات السبعة أعوام، وبكيتُ كثيرًا لفراق أبي ولوجود مثل هذا الرجل بيننا.

تركتُ ابن خالتي الذي يداعبني ويقبّلني على أمل اللقاء كما كنا نفعل أسبوعيًّا، ولكنني عدتُ إلى منزلي لأجد الخلافات مشتعلة بين أمي وزوجها من أجلي ومن أجل زواجي بشخص قريب له، لطمها على وجهها.. دفعَها أرضًا فارتميتُ عليها أحمي جسدها من ضرباته، وكما ضحّيتُ بجسدِي من أجل حماية أختي الصغيرة من قبل.. ضحّيتُ بجسدي مرة أخرى من أجل أمي ومن أجل أختي وحياتها المستقبلية؛ خوفًا من هذا المجنون الذي يحيا بيننا في المنزل.. هذا المجنون الذي حاصَرَني في حجرتي وجعلني أحيا حياةَ فتيات الليل و أُتاجِر بجسدي بعد أن فجّرَ ثورته.. بعد أن دخل دروب جسدي وتسلّقَ جباله وهضابَه ولثم تضاريسي كلها، ولم يكتفِ بذلك، بل ابتاعَنِي لغيره، زوجُ أمي هو عمي أيضًا.. تزوّجَها بعد وفاة والدي.. حبًّا فيها وفيَّ، أحبّها حتى في حياة والدي الذي مات من حسرته بعدما علم قصة حب عمي لأمي التي كانت ترفض تلك العلاقة في البدء، ترفض هذا الحب المحرم، إلا أن هذا الأخ الذي كان وضيعًا وخسيسًا مع أخيه أبدَى ندمه وتوبته وعزمه على تصحيح خطئه بالزواج من أمي؛ ليعول بنات أخيه كما أوهم العائلة كلها، وصدقته أمي المسكينة.

انزوَيتُ في حجرتي بعيدًا عن أيدي وأحضان وقبلات من اشتهوا جسدي وابتاعوه.. وحدى أمام المرآة ألعن هذا الجسد الذي دمّرَني نفسيًّا، كل فتاة تهتم بجسدها وتتباهَى به وتحبه، كنت أنا أكرهه إلا في لحظات حياتي مع مَن أخمَدَ ثورة جسدي وتعامل معه باحترام وقدّرَه! هذا الجسد الذي عاش طلبًا للعشق والجنس، حاولت كثيرًا إخماد تلك الثورة ولم أجد أمامي سواه، ذلك الطفل أو الشاب الذي دخل في مرحلة النضج والبلوغ، ثلاثة أعوام قضيناها معًا.. أشبعني وأشبعته.. أطفأ فيَّ ظمأ العشق للجنس والشبق وأشعَلتُ فيه ثورته ليصل إلى مرحلة النضج سريعًا، استأمنتُه على جسدي لعلمي أن إمكانياته الضعيفة وعدم قدرته على فض غلافي ستجعله يمارس معي كما أريد أنا، وكما يرغب جسدي وما أتمناه.

أخرجُ من بين يديه لأعود مرة أخرى، أغتسل وأمسح كل آثار القبلات والأحضان التي علقَت بي، وأغسلُ كلّ الخطايا والذنوب التي تتساقط مع مياه الاستحمام، ولكنها تتجمَّع مرة أخرى في اليوم التالي لتعتريني ولتأمرني بأن أعود إلى سيرتي الأولى.. إلى عشقي ولَوعي.. إلى ميدان ثورة جسدي، في كل مرة أعود و أتحسّسُ جسدي وخلاياه، و أتأكد أنها ارتوَت و انطفأ ظمأها، وأن جذوةَ نيران الثورة بها قد خمدت قليلًا؛ إذ أنّني أدركُ تمامًا أن تلك الثورة لن تخمدها أي أيدٍ أو أي قبلات، و إنما هي تحتاج إلى أكبر من ذلك، هي ثورة جسد يحتاج إلى عناق عن حب.. يحتاج إلى قبلات من شفاه تحب، ألا لعنةُ الله على من أيقظ فيَّ تلك الثورة.

– الشيخ خالد لا يمكن أن يفعل ذلك، أنتِ كاذبة، هو عمُّكِ الذي تزوجني بعد وفاة أخيه ليكون قريبًا منا ويحاوط علينا.

تلك هي الكلمات التي ستقولها أمُّكِ لو بُحتِ لها بالسر، وبعد أن أنتهي منك سأبدأ في الْتِهَام جسد أختك؛ فدعينا نلْهُو قليلًا يا صغيرتي

واستلْقي على ظهرك قبل أن تأتي أمك وأُخبِرها أنّكِ تعرَّيتِ ورقصت لإغوائي.

بمرور الوقت اكتشفتُ أنه رجل أفّاق مخادع.. لم يبتغِ إلى الله سبيلًا، تزوّج أمي طمعًا في أموالها وفي شقتها وفي جمالها، وما أن فرغ منها حتى تحوّلَ نحوي، رجل يرى أمامه جسدًا يثور وينمو وينضج يومًا بعد يوم، رأى ثمرات جسدي تطرح فأراد أن تكون يداه أول يد تمتد إلى خيرات الطبيعة، وأن تكون شفتاه أول من تتذوق ثمار تلك الطبيعة؛ فالتهمَني بعدما التهم أمي.

كم من مرات رأيتُه أمامي في حجرة النوم مع أمي عاريًا! وكم من مرة جاءَت عيناه في عينيّ في تلك اللحظات، ولكنّي لصغر سني لم أُدرك لماذا يفعل ذلك ولماذا ينظر إليَّ هكذا؟!

ويومًا بعد يوم بدأَت مطامعه فيّ تزداد ويده إليّ تمتد، ونظرات عينيه تلتهمني وتفترسني، وأحيانًا تفترس أختي، بدأ يتحسّسُني أمام أمي ويقبّلني أمامها، وعندما كنت أشكوه تنهرني وتقول لي أنه مثل والدي ويفعل ذلك حبًّا فيَّ.

كان يجلسُني على قدميه ويداعب شعري ووجناتي أيضًا، يضع يده على نهديّ ويشير لأمي، ويقول لها أنني كبرت ونضجت.. ويضحكان معًا! كنت أختبئ أحيانًا منه حتى لا يفعل بي ذلك، وكنت ألتمس دائمًا الأعذار لي ولأختي حتى لا يتلاعب بنا ولا يلامِسنا.

ثلاثة أعوام بعد زواجه من أمي وبدأ يمارس دوره الآثم معي.. بملاطفة وبمهاودة أولًا، ثم بعمليات استطلاعية واستكشافيّة لجسدي بعد ذلك، وتنوّعَت أفعاله وأوقات ممارسته لجريمته.. نهارًا وأمام أمي حتى نهرَتْني عندما تشكّكَت في نواياه، حتى تجرأ وتهجم عليَّ ليلًا.

في سكون الليل وهدوئه وفي لحظات نومي الهادئة تسلّل إليَّ ورفع عني غطائي وتحسّس جسدي، وبالفعل فجّرَ ثورة أعضائي وثورة أنوثتي.. احتضنني بشدة ولم أُدرِك ما الذي كان يفعله بي وقتها.

أيام مضَت ولم يأتِ إليَّ ثانية، ولكن همسه وأنفاسه ما زالت تلاحقني، وعناقُه وقبلاته ما زالَت عالقة بي، وجسَدِي بدأ يناديه، لكن روحي كانت تكرهه، وكرهتُه فعلًا وكرهتُ أنفاسه ورائحته، حاولتُ كثيرًا أن أبوح لأمي بما حدث، إلا أنّه هددني بأختي وتوعّدني إن تكلّمتُ فسيلحق بها الأذى، وسيفعل معها هي الأخرى وسيفقدها عذريتها.

بيده التي امتدَّت عليّ كرهت جسدي وضعفي وكرهتُ نفسي وأمي.. كرهت كوني امرأة! وأعلنت عزمي على الانتقام منه ومن كل الرجال، بدأت بابن خالتي.. الذي أفقدتُه عذريّته و أفقدتُه رجولته، ثم جارنا الذي طالما غازلني وأراد جسدي؛ فتركتُه يلهو فيه قليلًا ثم طعنته في مؤخرته بسكين صغير أحتفظ به دائمًا في حقيبتي طعنةً لن ينساها وسيتذكرني بها أبد الدهر.. طعنةً ترسم حرف ألف.. أول حرف من اسمي، وغيرهم كثير، كل الرجال الطامعين في جسدي تركتُهم يتجولون فيه.. يتحسّسُون يلمسون يُقبّلون، وفي آخر الجلسة يُطعنون، نعم طعنتُهم كلهم في أكتافهم، ما عدا هو الطفل الذي نما وكبر وترعرع على يدي، تركته كما أتيته بلا علامات سوى قبلات على جسده.. وشهوة يبحث عنها دائمًا، تركتُه يُكمِل طفولته ويخمد نيران ثورة جسد.

خلف القضبان

منذ أن تفتّحَت عيناي و أنا لا أرى حولي سوى القضبان الحديدية التي تُحيط بشباك صغير في أعلى حائط الغرفة، سجن صغير كنتُ أعيش فيه حبسًا انفراديًّا تعدّ عمره سبع سنوات عجاف، لم أعرف عددها تحديدًا، ما زلتُ صغيرة، لم أدرك الجمْعَ والحساب بعد ولا أي شيء في الحياة؛ فقد ولدتُ يتيمة الأب.. مات والدي و أنا ما زلتُ جنينًا في بطن أمي.. فتاة بريئة صغيرة السن من ريف مصر.

تزوّجَت بعد وفاة والدها وزواج أمها من آخر قاسي القلب؛ فلم تجد مهربًا ومفرًّا منه إلا الزواج والانتقال من القرية إلى المدينة، إلا أن سعادَتها وراحَتها لم تدُم طويلًا؛ إذ توفّي زوجها بعد أن أصبحْتُ أنا جنينًا في أحشائها بثلاثة أشهر.

- البقاء لله.. ربنا يصبرك يا ابنتي، أنتِ فعلًا في منزلَةِ ابنتي وستعيشين معًا في منزلنا، لن نترُكَ حفيدنا الذي في أحشائك ينشأ بعيدًا عنا.

- ربنا يصبرنا كلنا يا عمي، أنا تحت أمركم جزاكُم الله كل خير.

- العفو يا ابنتي، لا تقولي عمي، قولي يا أبي.. أنا في منزلة والدك الذي توفي من سنين.

- حاضر يا أبي.

واستقرَّت أمي في القاهرة في منزل والد زوجها، وعاشت بين والد زوجها ووالدته وأخته تعمل في خدمتهم وتسهر على راحتهم حتى وضعت مولودها.. نور، ويا له من اسم لا يحمل أيًّا من معانيه على الإطلاق، ولم يكن له حظ أو نصيب منه كما يقولون.

لم تتحمّل أمي تلك المعيشة وأن تعمل خادمة بلا أجر في منزل أهل زوجها، وخاصة بعد زواج أخت زوجها؛ فأصبحَت هي المسئولة عن المنزل بأكمله، وكيف ذلك وهي لم تتعدَّ الثامنة عشرة من عمرها بعد؟! وتلاعب بها الشيطان وقذف في رأسها أفكاره وسمومها، والتقطها ورسم لها خطة ذكية لتهرب من تلك المسئولية، وكادَ لها وكادت لهم وألقَت بنفسها خارج المنزل وتركت لهم رضيعتها.. تركتها تكبر وتنمو في كنف جدها وجدتها.. الشيخين الطاعنين في السن.

- نور.. ارتدي تلك الملابس، إنها ملابس ابن عمتك.. نور هيا نذهب إلى صلاة الجمعة.. نور تعالَ شاهد معي مباراة الأهلي والزمالك في الدوري العام.. نور هيّا سنذهب إلى المقهى سويًّا.

كان هذا كلام جدي الذي كان يُمنّي نفسَه بحفيد ولد يحمل اسمه كما يقولون؛ فجئت أنا فتاة؛ فأطلقوا عليها اسمًا يطلق على الأولاد والبنات رغبة منه في أن أكون ولدًا، حتى و أنا أنثى في الأوراق الرسمية.

مع ذلك كنت لا أملك سوى السمع والطاعة، أرتدي ملابس الأولاد وألعب بلعبهم.. و أتشبّه دائمًا بهم.

تلقّفَني جدي وجدتي بكل حب واحترام وعشق؛ فكنت لهما عوضًا عن ابنهما، ولخوفهما الشديد عليَّ أحاطا بي بتلك القضبان التي تعلو شباك حجرتي من الخارج وقضبان حديدية أخرى على باب غرفتي خوفًا من هروبي، أو أن يقتحم أحد غرفتي و أفر هاربًا معه، ووضعا على كل أبواب وشبابيك المنزل أسلاك حديدية لحمايتي من الذباب والحشرات، خافا

عليَّ من الاختلاط بأطفال من عمري وخافا عليَّ من لدغ الحشرات وقذارة الذباب، خافا عليَّ من وساوس الشيطان وكانا قريبَين مني جدًّا، وظنًا أنهما بذلك أقرب إليَّ من حبل الوريد وأنهما بذلك سيحميانني، ولم تغفل عيناهما عني.

وجدتُ نفسي محاطة بكل تلك الأسلاك والقضبان، وكان دائمًا قولهم عن ذلك الأمر: نحن نخاف عليك.

أصبحتُ طفلًا مسجونًا في حجرة لا تتعدَّى مساحتها الثلاثة أمتار، بابها الخارجي حديد ومنفذها الوحيد للهواء والنور والشمس هو شباك صغير في أعلى الحجرة قرب السقف عليه أيضًا أسوار حديدية، عاش طفولته لا يرى الشارع ولا يعرف ماذا يحدث للعالم من حوله! وكان كل عالمه هو جده وجدته ولعبه الصغيرة في حجرته.. تلك اللعب المختارة بعناية من جده وجدته؛ فهي عرائس وحيوانات إسفنجية أو قطنية، لا وجود لألعاب بلاستيكية أو معدنية خوفًا منها أن يؤذي نفسه بها، في الحجرة.. أضواء خافتة ولعب بسيطة وبصيص من النور يدخل إليَّ من الشباك الحديدي الذي أسمَعُ من خلفه أصوات أطفال يلعبون معًا في مدخل المنزل، أو أصوات مشاجرات بين السكان حول النظافة والمياه وغيرها، أو أصوات حيوانات كالقطط والكلاب التي تلهو بالخارج؛ حيث نسكن في الطابق الأرضي كما علِمتُ عن ذلك من جدي، وكانت تلك تسليتي الوحيدة.. أن أستمع لأصوات الحيوانات وبكاء وشجار الأطفال والكبار من حولي و أقوم بتقليدها، و أنا لا أعرف شكلهم أو رسمهم، كل ما أعرفه ألوان أو أشكال أو مسميات الأشياء فقط بعد أن أخبرني جدي بذلك؛ فكنتُ أقوم بالمواء مثل القطط والنباح كالكلاب والبكاء كالأطفال.

باب الغرفة يتم فتحه لي في اليوم الواحد خمس مرات فقط لا غير، مسموح بالخروج منها والذهاب إلى الحمام للوضوء والصلاة، حتى تناول الوجبات الثلاثة كانا يأتيان بها إلى غرفتي أيضًا، انقطعَت صلتي بالعالم

الخارجي وعشتُ كأهل الكهف، لا أرى إلا جدي وجدتي فقط، حتى كان يوم سمعتُ فيه أصوات بخارج الحجرة ونساء تبكي وتصرخ، ولم أدرك شيئًا إلا بعد أن فتح لي جدي باب الحجرة واحتضنَنِي بشدة.

– جدتك ماتت وسنحيا سويًّا معًا بدونها، سأعمل لك الطعام وأخيط لك الملابس.. الكون يضيق من حولنا.

نظرتُ إليه متعجبةً لا أفهم شيئًا مما يقوله؛ فأنا لا أعرف معنى الموت أو الحياة، إلا أنّني أدركتُ أن ذلك أمر خطير ومحزن؛ فجدي يبكي وأشباه أناس من حوله يبكون، وزحمة وضجيج في المنزل لم أعهده من قبل، كنتُ خائفة من ذلك الزحام وفرَرتُ هاربة إلى محبسي، وطلبتُ من جدي أن أختبئ؛ فأنا لا أعرف مَن هؤلاء ولا كيف يمكن التعامل معهم؟ اتخذ جدي قرارًا بفكّ أسري وخروجي من محبسي، وأن أحيا معه في المنزل.. أتجوّل بين حجراته وحوائطه، واتخذني جدي صديقًا له وضمّني إلى صدره و أبلغني مأمنه.

من حجرة بشباك حديدي و أبواب مغلقة.. إلى حجرات متعددة، أشخاص يأتون لزيارتنا كنت أخشاهم دائمًا وأختبئ خلف ظهر جدي، لم أعهد الناس ولم أعهد الحديث مع أحد.

– لا تخف يا نور.. هؤلاء عمك وأولاده يأتون لزيارتنا للاطمئنان علينا، ليس لنا سواهم بعد الله.

أنوار شديدة في كل مكان، و أثاث كثير وشبابيك أكبر و أقرب إليّ، وأصوات أقرب إلى الحقيقة تختلف عن التي كنتُ أسمعها في حجرتي، وتلفازبه أغانٍ ومسلسلات و أفلام.

– إلى متى يعيش هذا الرجل؟ موتُه سيعني أننا سنرث الكثير من بعده وتنحلّ كل أزماتنا.

استمعتُ لتلك الكلمات من أقاربنا الذين يأمَلُون موت جدي للاستحواذ على المنزل وطمعًا في الميراث، وكلام من هذا القبيل لا أعلمه ولا أعلم فحواه وما المقصود منه، لكنني سمعتهم يتحدثون عن ذلك عدة مرات.

- هيا يا نور اجمع ملابسك وأشياءك لنخرج من هنا.

ألقى عليَّ أحد أقاربي ذلك الكلام و أنا أبكي، تُوفِّي جدي.. سندي الوحيد.. الشخص الوحيد الذي أعرفه في حياتي.. الدفء والحنان.

توفي الجد بعد ما فارقته زوجته وشريكة حياته ورفيقة دربه ولم يستطع العيش بدونها، لم يستطع أن يحتضنني أكثر من شهرين، هما ما عرفته من السعادة والحياة فقط، أعود الآن يتيمًا مرة أخرى و أفقد آخر صلة لي بعالم البشر و أفقد آخر ملجأ وملاذ من الهموم والسموم التي حوله، واشتد صراع الأعمام حول المنزل وتناسَوا الطفلة الصغيرة ابنة أخيهم، وقرّروا أن يُلقوا بي في دار أيتام، لم تستمِرّ حياتي فيه كثيرًا، كنتُ أعامل هناك كطفل و أنا في حقيقة الأمر طفلة لي احتياجات أنثوية بدأت تُلحّ وتظهر عليّ وتتغير ملامحي الأنثوية.

لم أعرف لمَ كانوا يعاملونني بتحفظ ويخلطون بين تعاملهم معي كمذكّر مرة وكأنثى مرة أخرى؟! أعُامَل كشخص منبوذ شاذ بين الجميع حتى كرهتُ نفسي والمكان، ففرَرْتُ إلى الشارع، طفلة لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها.. حليقة الرأس ترتدي ملابس الرجال.. تتكلم بكلماتهم ولسانهم، أسير في الطرقات بلا هدف ولا غاية، أبحثُ عن سفينة نوح تنقذني مما أنا فيه، ولمَ لا؟ ألم أكن أنا حفيدة نوح وفرَرتُ معه في تلك السفينة كما أبلغني جدي بذلك؟! أنا الآن كيونس يوم ألقاه الحوت بلا مأوى وبلا حماية لي من الوحوش الآدمية التي لم أعهدها من قبل، أنا لم أعرف سوى قبو وحجرة صغيرة.

خرجتُ للمرة الثانية من عالمي الضيق إلى عالم أوسع وأشد رهبة يفوق قدراتي، كيف لي أن أواجهه و أنا المحبوسة في ظلمات من فوقها ظلمات؟! أنا لا أقرأ ولا أكتُب إلا القليل مما علّمه جدي وجدتي.

اسمي وعنواني، وأتلو بعض آيات من القرآن أحفظها وأصلي بها، ولكن هل تنفع تلك الأدوات كأسلِحَة في مواجهة هؤلاء الأشخاص؟

بكيتُ بشدة و انزويتُ إلى ركن مظلم في أحد الطرقات أبكي حظي العثر وحياتي التعسة، و أُنعِي جدي وجدتي ووالدتي على ما فعلوه بي، لم أدرِ وقتها هل أدعُو لهما أم عليهما؟! خلعتُ الطاقية التي أرتديها فوق رأسي والتي ورثتها عن جدي، حاولت أن أفرد شعرى مثلما تفعل بنات مثلي؛ فوجدته حليقًا، تذكرتُ ما كان يفعله جدّي ويحلق لي رأسي لكي أكون مثل الأولاد، وهو ما فعله بي المسئولون في دار الأيتام، وقتَها تذكّرتُ أنهم كانوا يعاملونني كولد.. و أنا أوراقي كلها بنت!

لكن تربيتي وملابسي وحلاقة رأسي وطريقة كلامي كلها شاب، لكنني أنثى، صرخْتُ.. تحسّستُ جسدي وجدت ملامح الأنثى تظهر عليه، صدري أصبح بارزًا مثل البنات، ارتعشتُ و أنا أتذكر معاملة أقاربي لي والعالم الذي يعاملني على غير طبيعتي، أنا أنثى.. وكيف لي مواجهة هذه الدنيا بأنوثتي وضعفي؟! آثرتُ العزلة؛ فلم أشأ أن أدخل في صراعات مع أعمامي حول حقوقي ومستحقاتي كما أوعز إليَّ أحد الجيران بأنّ لي حقوقًا عليَّ الحصول عليها من ميراث والدي وجدي، إلا أنني رفضت ذلك، حاولتُ أن أعمل بأي مهنة.

– نجار، ستعمل لدينا نجارًا وسنعلمك كل شيء، لكنك ستراقبنا في بداية الأمر وتجمع بقايا الأخشاب وتنظف المكان، وسنتركك للنوم هنا تحرس المكان والأدوات.

استمعتُ إلى كلمات هذا الرجل الذي يشبه كثيرًا جدي، وهو صديق له في الحي، وجدني نائمة على أوراق من الكرتون جمعتها من القمامة وجعلتُ منها فراشًا لي بجوار المسجد، عطف عليَّ وتذكر جدي واحتضنني في محل عمله.

اغتسلتُ ووجدت بعض الأعين تنظر إليَّ وتراقبني من بعيد، إنهم عمال يعملون هنا ،انزويت بعيدًا عنهم واحتضنتُ وسادة وغطاءً مدَدته على الأرض وحاولت النوم بعيدًا عنهم.

كنت أسمع كلامَهم عني وضحكاتِهم واستهزاءهم بي، حاولت النجاح في حياتي الجديدة إلا أن الفشل كان يلاحقني دومًا، وكيف لي أن أنجح وأنا غير قادرة على التعامل مع الناس ولا أعرف التعامل مع نفسي أيضًا؟! فاقدة الثقة في نفسي وفيمن حولي، أنا لا أعرف هل أنا فتاة كما هو مدوّن في الأوراق وما هو ظاهر على جسدي؟ أم أنا ذكر كما ينعتونني ويتنمرون عليَّ؟ أبحث عن العزلة وعن عالمي الخاص الضيق الذي يناسبني والذي شبَبتُ عليه.

- انظروا إلى جسدها.. صدرها بارز وتحاول أن تخفيه، إنها بنت وليست ذكرًا.

-لا ذكر، ولكنه شاذ.

- أنثى ولا بُدّ أن نكشِف عليها.

- ذكر، ولو كشفنا ملابسه سيظهر لنا.

سمعتُ كلامهم كلهم وهم يتهامسون حولي، أحدهم يدفعني بيده والآخر يحاول أن يتحسّس أعضائي، وأحدُهم يحاول أن يقطع ملابسي، صرخت فيهم وخلعتُ ملابسي ليرَوا صدري وأعضائي؛ ليعلموا أنّني أنثى.

وفررتُ هاربةً من كل الصراعات التي حولي، ومن كل الضجيج والأصوات والأشخاص المحيطين بي، هنا كنت أجد لذةً وفرحة وسعادة بالوحدة والعزلة التي أحيا فيها ليالي طوال مع الآلات والمعدات، فاض بي الكيل وضربتُ أحدهم بقطعة من الأخشاب على رأسه، لحقوا بي قبل الفرار حتى كان مصيري حبسًا في أحد أقسام الشرطة، وهناك لم يستطيعوا التعامل معي على أنني ذكر أو أنثى؛ فقرروا حبسي حبسًا انفراديًّا وهم يظنون أن ذلك تعذيبًا لي، ولكن السجن كان أحبَّ إليَّ من الدنيا وما فيها، كان الحبس الانفرادي هو ملاذي وسعادتي، وكانت حوائطه الخشنة ورائحته العفنة هي الدنيا كلها لي، عندها أيقنت أنني لن أستطيع أن أحيا إلا خلف القضبان!

خطوط سوداء

في الطابق الرابع عشر في إحدى البنايات الشاهقة التي تطلّ على نيل مصر وأهراماتها الشامخة التي أراها من بعيد، كانت حجرة مكتبي أقف في شرفتي أُشاهِد بكل فخر هذه اللوحة الفنية البديعة، أنظر إلى السماء التي أراها بالقرب مني بلا حواجز تكاد جبهتي تلامسها و أنا فوق الجميع، وما أن اعتدَلتُ وجلست على مقعدي لأباشر عملي و أقرأ الأوراق التي أمامي على المكتب إلا وقد سمعتُ صوت ضوضاء في مكتب المساعدة الخاصة لي، تعالَت الأصوات وعلا صريخها، نهضتُ مسرعةً في محاولة للخروج للحاق بها، لكنني وجدتُ ثلاثة من الموظفين يقتحمون باب المكتب رجل وامرأتان، تبينت ملامحهم وعرفتهم، تلعثَمَت الكلمات في فمي قليلًا، إلا أنني استجْمعتُ شجاعتي وأمرتهم بالخروج ومددت يدي أمسك الهاتف لاستدعاء الأمن، إلا أنهم أسرعوا وأمسكوا به وقذفوه بعيدًا، وأمسكَت بيدي إحداهن وجذبتني بقوة، وأتى الرجل وأبعد المقعد من أسفلي وأمسكَت بي الأخرى من خلفي، وأصبحت مقيدة بين أيديهم، ولم ينطقوا إلا بكلمتين.. الظلم ظلمات، ودفعوا بي بكل قوة لأرتطم بزجاج الشرفة.

– نحن هنا للاعتذار وطلب الرحمة والغفران، أنتِ من تديرين هذا المكان وتتحكمين في الأرزاق هنا، نحن لا نطلب سوى العفو والصفح منكِ، لم نخطئ خطأ يستلزم الفصل وأن تُلقي بنا إلى التهلكة، لا تجعلي

رضوان يغلق الأبواب في وجهنا، دعينا نحيا في الجنة.. نحن رجال ونبكي أمامك، لم نبكِ من قبل، صكُّ الغفران في يديك..

اعتدتُ كل يوم النظر في المرآة في مكتبي قبل أي شيء، أتأمّلُ نفسي وأسترجِع قوتي وشخصيتي، أشاهد المنظر البديع من الشرفة من تلك الغرفة في تلك المملكة.. مقر إقامتي اليومي، حياتي كلها هنا.. قضيتها في هذا المكان منذ أن كان برعمًا صغيرًا روَيتُه بعملي وجهدي أنا ومن معي من الزملاء، حتى صار صرحًا كبيرًا شاهقًا تراه الأعين من كل مكان ويتمنَّى العمل فيه الجميع، بل أن يدخلوا فقط من أبواب جنته السبع.. سبعة أبواب.. حراس سبعَة يقودهم رضوان حامل مفاتيح جنة هذا المكان، الذي يدور كله حولي وحول كلماتي وتعليماتي.. قرآني الذي وضعته هنا.. وقانوني الذي يسير عليه الجميع، كان الكل يسير على نهجي وسنتي وقرآني إلا هو.. صرخ في وجهي:

- لن أكمل تعليمِي هنا، لن أكون أسير تلك الحضارة وتلك التقاليد والعادات والقوانين، لن أحيا في ظلّ ضوئك دائمًا، أنتِ أمي ولكنك تتناسِين ذلك.. تعتقدين أن البيت بمثابة جزء آخر من العمل.. إدارة أخرى من إداراتك التي تستمع لتعليماتك وتنفذها ولا يناقش أحد أو يجادل في قوانين وضعْتِها وساروا عليها عمرًا، الكل يخاف منك ويخشاك، لا أعتقد أنهم يحبّونك؛ لذلك لا تفعلي معي مثل ما تفعلينه معهم، أنا ابنك ولست عاملًا لديك، أنا لست مثلهم، لا تجعليني أخشاكِ وأخاف منك، دعيني أُحبُّكِ وأستمر في حبك، لم يبقَ لنا في الحياة سوانا.. أنا وأنتِ فقط، فر أبي من مملكتك، ولم يبقَ سوى أنا الأسير الوحيد لديك؛ فُكِّي قيدي وأطلقي سراحي.

لم يطلقوا سراحهم بعد، سيُقدّمُون للمحاكمة، ولكنني قررتُ العفو عنهم اليوم، عزمتُ على التوبة وأن أغفر لهم.

صحوتُ من نومي واتخذت هذا القرار، ناديت على الممرضة التي تتناوب على رعايتي، أمرتها أن تأذن لي في النزول من فراش المرض وتساعدني لارتداء ملابسي للذهاب إليهم وطلب العفو لهم، سأتنازل عن قضيتي لأول مرة في حياتي.. سأقدم نفسي قربانًا لمحو كل ذنوبي.. ستكون تلك بداية توبتي.

ما زلت أتذكر كلماته الأخيرة جيدًا، أنهى حديثه مسرعًا وخرج من البيت يجري وأوْصَدَ الباب خلفه حتى لا ألاحقه مثلما فعلتُ مع قدوته، كان قد أعدّ حقيبته وأمسكها في يده وغادر، أنهى دراسته هنا وقرر استكمال دراسته في الخارج، قرّر الهروب مثل أبيه، الكل كان يكيل لي الاتهامات بالقسوة وفظاظة القلب، بل وموت الحب في قلبي.. ذات الوجه الأسود.. المرأة الكئيبة.. المرأة الحديدية، ما هي إلا أسماء أطلقوها عليَّ، كنت أسمعهم يتهامسون حولي، وأسمع دقات قلبهم تتعالى وتصرخ طلبًا للرحمة مني.

لم أعِرهم أي انتباه.. بكوا، نظرت إليهم وهم واقفون كتلاميذ المدرسة أمام معلمتهم التي تعاقبهم، تلذّذتُ بنظراتهم وبكائهم، وأنا جالسة لم أتحرك من مكاني.. كل الكبر والفخر لي.. حكمتي وقوتي ونفوذي وعلاقاتي مكّنَتْني من إدارة هذا الصرح، عقاب لكل مخطئ، لا أحد يتقرَّب مني إلا من أريد ومن أحب، وأنا لا أحب، أنا أدعوهم للاقتراب كالفراشات تحوم حول الضوء، ثم أتركهم يتساقطون.

أتساقط بسرعة، كنت أرى نفسي طائرًا تم اصطياده يسقط من السماء إلى الأرض تحت أقدام صياده، الظلم ظلمات.. آخر الكلمات التي سمعتُها، ارتَجّ رأسي بمجرد اصطدامه بزجاج الشرفة، ووجدتُ نفسي أتهاوَى من فوق صرحي وعرشي ومملكتي من خلفي تودعني، الأرض تقترب بسرعة والسموات السبع التي كنتُ أتخطّاها وألمسها برأسي تبتعد،

سأموت لا محالة! لم أصرخ.. لم أبكِ، أنا امرأة قوية لا تهتز ولا تبكي، سمعت صراخًا حولي.. ثم سكت كل شيء.

كانت يداي ترتجفان و أنا أمسك به في محاولة يائسة لإثنائه عن الهرب والفرار من جنتي، تلك الأيدِي التي طالما امتدَّت على وجهه صفعة اعتبرتها تهذيبًا له وعقابًا عما اقترفه من خطأ، لم تأخُذْني به رحمة يومًا ما، لم أنظر إليه كطفل يخطئ ويصيب، لا يوجد في قانوني معنى للخطأ ولا احتمالات له، طفل يجب تربيته طبقًا لما أريد وليس طبقًا لما يقولون، كانت لي دائمًا الكلمة الأولى والأخيرة واليد الطُّولى في البيت، أنا زليخة.. كليوباترا.. أنا حتشبسوت.. لم ولن أكون تابعة.

– أنتِ زوجتي تابعة لي.. لست أنا التابع لك، أنتِ تمادَيتِ في الخطأ في كل نواحي الحياة التي سئمتها معك، يدِي التي امتدت عليكِ اليوم تأخرت كثيرًا في هذا القرار، يدي كان يجب أن تحفر على وجهك الأسود علامات منذ أول يوم أخطأتِ وتماديتِ في أدوار لم تُرسَم لك، أنت صاحبة قرار وامرأة متسلطة مديرة هناك في عملك.. هنا أنا القائد.. أنا صاحب البيت والقرار، أنت تابعة.

كان ذلك آخر عهد لنا معًا، يداه امتدت على وجهي تصفعني؛ ليشرُخ روحًا لم تُمسّ من قبل.

لم أقبل بكلماته، إدارة قانونية سخّرتُها لي.. قضايا دار في رحاها في المحاكم، دكتور جامعي أصبح مهددًا دائمًا بفقد عمله، أصبح أسيرًا لسجنٍ صنعتُه من أجله فقط، لم ألقِ عليه محبة مني.. ألقيته في غيابات الجب، حتى أعلن استسلامه لي، جاء لي راكعًا طلبًا للسماح والعفو كما فعل وسيفعل غيره، تنازل عن حضانة ابني وعن كل حقوقه وممتلكاته، وتركتُه يخرج مهاجرًا خارج البلاد راكبًا راحلته باحثًا عن مدينة أخرى تؤويه.

أويتُ إلى الفراش، أبلغوني بعد أيام أنني كنتُ في عداد الموتى.. نائمة هنا تحت تلك الأجهزة لمدة سبعة أيام، تبسّمتُ فما زالت لعنة رقم سبعة تطاردني، قص عليَّ الطبيب ما حدث وعما أصابني.. اصطدمت بزجاج الشرفة فانكسر، سقطتُ فهوَيتُ، ولكن القدر كان يخبئ لي أمرًا، سيارة من قذَفَ بي من الشرفة كانت تقف أسفل شرفتي؛ فسقطتُ عليها مما خفف وطأة الاصطدام، شُجّ رأسي وعمودي الفقري أصابته الكسور؛ مما سبب لي عجزًا تامًّا، لكنني لم أمُت بعد، دمّرتُ حياته وسيارته كما دمرتُ حياة الآخرين.. زوجي و ابني أول المتضررين من ذات الوجه الأسود.

– أبي الذي فر منك هاربًا سأذهب إليه، كل الأحاديث الدينية كانت تقول أمك ثم أمك ثم أمك، لكنكِ لم تكوني تلك الأم التي أوصَت بها كل الكتب السماوية، لم أرَ طفولة أو حنانًا معك.. كان أبي ثم أبي ثم أبي، والآن أهاجر إليه، ولك وحدك المنازل والعقارات والسيارات، لك وحدك حياة ولنا حياة أخرى.

رتيبة ذات الأصول العريقة تسمع كلمات من ابنها، كانت آخر الكلمات في سطر النهاية في قصة حياتها، ارتديت ملابسي مسرعة بعد انصرافه، وقرّرتُ الذهاب إلى العمل لتقديم استقالتي والذهاب إلى ابني وزوجي والاعتذار لهما والعيش معهما، وقرّرتُ قيادة سيارتي بنفسي، اتصلت بالسائق وطلبتُ منه الانصراف، سأتولى أنا القيادة، وفي الطريق بدأت أستعيد الذكريات.

رتيبة حياتي كما هو اسمي.. لكل واحد منا حظٌّ من اسمه، وهو ما انطبق فعليًّا عليَّ.. فتاة عادية لم تكن جميلة بمواصفات الجمال المعروفة، لكنها ابنة أسرة مشهورة، والدها ووالدتها أطباء مشهورون في مجال الطب، ويعملان أيضًا بالتدريس في الجامعة، تربّيتُ على الالتزام والهدوء والصرامة والمذاكرة وحب التعليم من الصغر، لم أعتد على

اللعب مثل نظيراتي من الأطفال في النوادي أو حتى في المدرسة، فقط العلم والالتزام والمذاكرة، حتى كانت كل حياتي تتركز حول النجاح والإصرار على الوصول إلى هدفي دائمًا، علّمَني والدي التصميم والتحدّي، وأنني دائمًا على صواب مهما يحدث ومهما تكون المعوقات، واستمرَّت حياتي هكذا.. رتيبة وهي رتيبة فعلًا، بدأ التحدي مع أهلي ونجحتُ في تحقيق هدفي، ومن هنا بدأ التحدي ضد الجميع؛ فخسرتُ أهلي وخسرت الجميع أيضًا.

– إنهم في انتظار حضورك.. يريدون أن يتحدثوا معك، يرجون رحمتك مرة أخرى، وأنا أيضًا أدعوك لتكوني معهم رحيمة، كلنا مخطئون.

سمعتُ تلك الكلمات من المساعِدَة الخاصة بي وأنا أدخل إلى المكتب، ووجدت في أعينهم نظرات الانكسار وخيبة الأمل، ولأول مرة أشعر بضعف موقفي بعد ذهاب ابني الذي كسرني حقًّا، قررت العفو عنهم، دخلتُ إلى المكتب وتركتهم وأمرتهم أن يتنظروا قليلًا، لديّ طقوس يومية لا بُدّ أن أؤديها، ولكنني اليوم سأتلو قرآنا أيضًا عسى أن أتطهّر من ذنوبي وأن أستجمع كلماتي للعفو عن كل من أسأت إليهم من عاملين معي في هذا المكان، سأمحو صورة المرأة الحديدية.

إلا أن القدر لم يكن بي رحيمًا، وكان له حكم آخر وسينفذه، لم يمهلني الوقت للتوبة، جئتُ متأخرة وكانوا أسرع مني في تنفيذ حكم الإعدام -كما يقولون- على المرأة التي رسم ملامح وجهها خطوطًا سوداء.

صفحة جديدة

تلمَّسَها بهدوء ومدّ يده يفك الغطاء عنها ويحررها من قيودها، و اقترب بوجهه منها وتحسّسَها برفق معهود كما يبدو لي ذلك، ووضع فمه عليها وقبلها قبلة خفيفة، رائحة عطرها تجذبه إليها، ضحك ضحكة عالية وتلفت حوله، ثم.. قام بتقطيعها إلى أجزاء صغيرة وفركَها بيده بحرفيّة شديدة على ورقة بيضاء، ثم أخرج من جيبه دفتر ورق سجائر وقام بلفها لعمل سيجارة، ودخّنَ بعمق شديد و أنفاس تتلوها أنفاس، حتى امتلأت السيارة بدخان سجائره، ولم يخرج الدخان إلى الخارج؛ فقد حبسَه معه حتى يستمتع به، كما يريد أن يستمتع بي أنا أيضًا، ومن خلف الدخان لم أعد أراه.

لم أتمالك نفسي و أنا أنظر إليه يفعل ذلك أسفل شرفتنا خلف زجاج سيارته، أغلقتُ النافذة وجلستُ على فراشي أبكي.. كيف يفعل ذلك؟ لا يعبأ بالجيران ولا المكان، لا يعبأ بالمجتمع الذي نحيا بينه و انتقلنا إليه، أيام مضَت علينا هنا.. حاول أن يتغير فيها ولكنه أستمر على عادته السيئة .

مع نسمات الصباح كانت تهمس بصوت حنون في أذنه ويدٌ أحن تمتد لتداعب بعض خصلات من شعر رأسه انسدلَت على جبينه، ثم قبلة تُطبع على خده، استدار سريعًا وأمسك بها ورفعها إلى صدره وضمها إليه برفق وحنان، وطبع هو الآخر قبلةً على جبينها؛ فأسرعَت ونادَت عليه،

نظر إليها في سعادة بالغة، أمسكَ يدها ونزل من الفراش ومشيا معًا و أنا أر اقبهما؛ فطبع قبلةً على جبيني أيضًا، وأمسك يدي وضمّها إليه في رفق.. كما اعتاد أن يفعل يوميًّا منذ زواجنا، وخرجنا ثلاثتنا من الغرفة.. أنا وهو و ابنتي.

أهذا هو نشيدك الوطني اليومي ومحاضرتك التي لا تنتهي؟ أم ما زلتَ مثل البحر أمواج تليها أمواج؟! العمل والمبيت فيه ونساؤه ورجاله وجنته وجحيمه أهوَن من العيش معكِ، كلامٌ مكرّر مثل الأفلام والمسلسلات المصرية.. تمتد لحلقات وحلقات والنهاية معروفة.. دعيني أنصرف فلا فطار وردي حالم ولا عشاء فاخر على أضواء الشموع ولا هدايا فاخرة تُصلح من أحوالِك وتُمحي سيئاتي إن كانت موجودة.

اندفع و اقفًا ودفع مقعده، ألقى الأطباق والأكواب من أمامه لتسقط أرضًا، نظرتُ إلى ابنتي وأدرتُ وجهي مسرعة، ولم أنظر إليه؛ حتى لا يرى ضعفي ودموعي، نهضتُ أنا أيضًا في محاولة لإلقاء نظرة أخيرة عليه ووداعه قبل المغادرة، دخلتُ إلى حجرتي وفتحتُ نافذتي أنظر إليه قبل أن يقود سيارته مبتعدًا، أتمنى لو ألقى نظرة أخيرة نحوي لأعلن له أنّني سامحتُه وغفرت له نزو اته وأخطاءه، دخل سيارته ولم ينظر إليَّ، ولكن عيني لم تتنازل عن انتظار نظراته، انتظرت وتذكرت..

أربع سنوات على زواج تم بعد قصة كفاح مريرة كما هي العادة في معظم الزيجات المصرية في ذلك الوقت، وكما هي عادات وتقاليد الشعب المصري من خلافات وصعوبات بين العائلات ومشاكل بين الزوج والزوجة، حتى وإن كانت بينهما قصة حب طويلة.

حديث صامت على مائدة الإفطار بين وليد زوجي و أنا سلمى الأم و ابنتي سلمى أيضًا التي اختارلها زوجي نفس الاسم حبًّا فيَّ كما كان يقول

ذلك، أو كما ظننتُ أنا! العيون فقط هي من تتكلم، أما طفلتنا فتلعب وتلهو وهي تأكل معنا، وهي الوسيط بيننا في هذه الحياة.

صفحة جديدة.. هي نهاية القصة بيننا، شجار ومعارك بيننا.. خصام وودّ مفقود.. وأملٌ ضائع في الإصلاح، أصبر عليك و أنا أعرف أنه لا أمل من إصلاحك، خصام في الخطوبة وخصام الزواج! وأهالينا تتعارك أثناء الخطوبة و أثناء الزواج، أنتظرك و أفوز بك ويكتمل حلم عمري معك، ثم تخبرني وتقول نبدأ معًا صفحة جديدة.. نفس الكلمة التي تقولها في كل مرة.. نفس الكلام المكرر!

- يكفي هذا القدر من حياتي معك، سأخرج من جنّتكِ، سأكون أنا إبليس طريد فردوسكِ، ولكن دعيني أعترف لكِ بحبي الو افر لك الذي تحوّل إلى قيد لي، أصبحتُ سجينًا لديك، كنتِ دائمًا معي مثل ظلي.. مر اقبتك لي.. شكك الدائم.. ظنونك التي تقتلني، يكفي هذا القدر من الحياة.

خرج وليد تاركًا قلبي يتمزق في حزن وعيني وبكاءها و ابنتي التي تحاول أن تمسح تلك الدموع بيدها الصغيرة، أغمضتُ عيني وتذكّرتُ تلك السنوات التي مرَّت من عمري هباءً منثورًا، سنوات رغم ما بها من حب وعطف إلا أن الكثير منها قضَيتُه في صراعات ومشاكل مع أهلي وأصدقائي، كل ذلك من أجل أن أفوز بوليد.. هذا الشاب الطموح الذي شاهدني في فرح إحدى صديقاتي وبدأت قصة حب تحاكَى عنها الجميع، لكنّي لم أحبه.. بل عشقته وأدمنته، و أقنعت أهلي به رغم ما بيننا من فروقات..

ابنة أحد رجال الأعمال، وهو ابن أحد الموظفين الكادحين الذي علّمَ نفسه بنفسه والتحق بأحد الأماكن العريقة في سوق العمل، وتدرّجَ وظيفيًّا وشجّعتُه أنا على الانتقال من عمل إلى آخر، وساعدته قدر

الإمكان حتى أصبح قادرًا على مواجهة أهلي، تركني في وسط الطريق مرة وأخرى، إلا أنّني تمسّكتُ به لأقصى الحدود، دخلتُ المستشفيات وتم علاجي من انهيارات عصبية ونفسية حادة بعد كل مرة نفترق فيها، إلا أنّني لم أستطع أن أُشفَى من إدماني له، لقد عشقتُه حتى الثمالة، وأدمنته حتى الموت!

مات.. أنقذوا الرجل.. أين أهله؟

إنه الأستاذ وليد.

أصوات وضوضاء تأتي من بعيد، ما أنا سمعت اسمه إلا وقد أفقت من غفوتي في الشرفة على صرخات في الشارع أسفل منا، وأصوات تنادي عليَّ

- لقد مات الأستاذ وليد.

لقد سقط فاقد الوعي وهو يدخّن سجائره المملوءة بالمخدرات على مقود السيارة، و انتبه الناس إلى صوت صافرة السيارة وهي تدوّي بصوت مرتفع مستمر، وعندما اقتربوا منها وجدوه ملقى على مقود السيارة، حاولوا إخراجه و إفاقته، إلا أنه قد مات وحقق أمنيته.. إنه أغلق دفاتره القديمة كلها، أخيرًا ابتعد عنا كما كان يرغب دائمًا، لجأ إلى المخدرات هربًا من مشاكلنا، وجد فيها لذته ونشوته و انتصاره بعيدًا عني.. أدمنَها وهجرني، تمنَّيتُ أن أُعلن له غفر اني، ولكنه لم يمهلني لفتح صفحة جديدة!

على فراش الموت

تنقضي الأيام و أنا بجواره.. أستمع إليه مرة و أتجاهله مرات، صوتُه المنخفض وكلماته المتعثرة وتلعثُمه الدائم زاد من صعوبة الاستماع والتحدث إليه، حتى أنني قد نسيتُ صوته الحقيقي الذي غاب عن مسامعي منذ فترة، إلا أنه اليوم ألح عليَّ أن أنتظر وأستمع إليه بإنصات، توسلاته ودموع عينَيه دفعَتْني لإمساك يده وتقبيلها، فوجئتُ بأعصابه قوية على غير عادته ويده تضغط على يدِي بشدة؛ فجلستُ على الفراش، نظرتُ إليه كما أمرني، وبدأ يسرد عليَّ اعتر افاته كما أخبرني..

– دعيني أعترف لكِ لعلها تكون الناجية، هي أيامي الأخيرة.. قد لا أراكِ مرة أخرى، وقد يسكتُ لساني للأبد، سأعترف لكِ و أتمنى منكِ الصفح والعفو والغفران، إن غفرتِ لي فسيغفر لي ربي بالتأكيد، وإن رفضتِ فسيعذبُنِي في الآخرة كما يعذبني الآن في الدنيا، فما أنا فيه الآن من مرضٍ وتصلّب شر اييني وضعف أعصابي إلا عذاب وعقاب لما اقترفته في حقك، لقد خنتكِ عدة مرات، وللأسف كثيرًا من تلك المرات هنا في منزلنا.. على فراشك.. على وسادتك، نامَت النساء وبعطْركِ تعطَّرن.. وفاض النهر بيننا هنا.

تعجبتُ مما أسمع و أفلتُّ يدي من بين يدَيه، نظرتُ إليه نظرة احتقار، همَمتُ بالبصق عليه، حاولتُ الكلام، لكنني كنتُ صرعَى كأعجاز نخل خاوية.

عند تلك اللحظة لم أستطع التحمل.. بكيت، نهضتُ مسرعة.. خرجت من غرفته، أُغلِق الباب من خلفي، صرختُ.. لم أستطع سماع صوته من خلف الباب وهو ينادي للعودة إليه، لم أستطِع استكمال الاستماع إلى مر افعته، حكمت عليه بالإعدام، شاشة سوداء ليس بها أية بقعة ضوء نزلت أمام عيني، لم أعرف ماذا أفعل؟! هل لي أن أستكمل سماع أقواله وأن أعرف مع مَن كانت الخيانة؟ لا.. ولا أريد أيضًا أن أراه، كرهته كما لم أكره شخصًا من قبل، أنا لم أكُن أحبه في بادئ الأمر، ولكنّني انسقت وراء كلماته واعتقدت خطأ أني أحبه؛ فأخلَصتُ له، أنا مَن ضحَّيتُ من أجله سنوات وسنوات، انتظرتُه عامًا من بعد عام، مطارداته لي في الجامعة وملاحقته لي المستمرة حتى أتزوجه، قسَمُه لي بحبه وولائه وإخلاصه، كلها كانت كلمات روايات تلاها عليَّ مرات ومرات، تزوّجتُه وأخلصت له، تركْتُ عمَلِي ومستقبلي من أجله، وقف والدي أمامي يومًا وأعلن لي عدم رضاه عن تلك الزيجة، انهرت أمامه وبكيتُ حتى رضخ لي، احتضنَنِي وأعلن مو افقته مرغمًا على ذلك، ولكن عليَّ أن أتحمّل كل العو اقب من ذلك الاختيار، واليوم ها هي العو اقب الوخيمة تحلّ عليَّ، ولعنات ذلك الارتباط تطاردني الآن.. الخيانة هي أقسَى عقاب لي.

– تضحيّاتُك جَميلٌ لي لن أنساه أبدًا، سيظل ذلك وسامًا على صدري، كنتِ لي صخرة ووتدًا في ظهري دعمًا لي في حياتي كلها، من أجل تضحياتك وهبتُكِ حبي وعمري، وهبتُكِ منزلنا هذا كتبته باسمك، لن أنسَى تضحياتك طوال العمر، أبناؤنا هم أفضل الأبناء بين أقرانهم.. بين أقاربهم.. ناجحون، نمتلك منزلًا آخر في الإسكندرية نذهب إليه صيفًا، كل

تلك الأموال والعقارات تحصلت عليها بعدما ضحَّيتِ من أجلنا وأعطيتنا من ميراثك.

طبع قبلةً على جبيني بعد تلك الكلمات يومها، وكأنها أبيات شعر يبثها حبًّا فيّ، والآن أتلقّى ثمن تلك التضحيات.. مكر وخداع وخيانة، تذكّرتُ اعترافاته بالخيانة؛ فعدتُ إليه مسرعة، وفتحت عليه الباب مرة أخرى وصرخت فيه لينطق مَع من كانت الخيانة؟ سأصمتُ لأستمع إلى مزيد من تفاصيل أفعاله الشنعاء.

صديقتُكِ الوحيدة أتَت إلينا هنا.. تحكي كل الأسرار التي كانت بينكما، تلقّيتُ الأسرار وتلقّيتُها أيضًا، وتركتُها ترمي بنفسها بين أحضاني، أحببْتُها ونهلتُ منها عسلها، وتذوّقَت خيراتي؛ فأعجبَتْها وغرقنا في ملذات لا تنتهي، أختُكِ أيضًا كانت بين أحضاني، ثقتُكِ فينا وتوسّمكِ الخير فيها وفيّ دائمًا كنا نقابلها بالخيانَة، تأتي إلينا في غيابك ولا نأبى لما نفعل، لا نهتم بوصف ما نفعله أنه خيانة، كل ما كان بيننا هو حب بريء جميل بدأ بالثناءِ منكِ على كلَينا، ثم انتهى إلى الخيانة، حملَت مني وأجهضَت كما أبلغَتكُم أن هذا حَمل من زوجها وأنها أجهَضت لخوفها على الجنين، كدتُ أن أكون أبًا لطفل من أختكِ، تقبّلي اعتذاري عسى أن تكون تلك الكلمات آخر ما أنطق به.

- صديقتي وأختي!

ارتعش جسدي من تلك الفكرة، أسندتُ رأسي على الحائط غير مدركة لما يتكلم به، ما أصعبَ أن تأتي الطعنات من أقرب الناس إليك! تذكرتُهما وهما يذهبان معي لاختيار ملابسي التي أرتديها لك.. عطوري التي أتعطّر بها من أجلك، تذكّرتُ أنهما كانتا تختاران ما تريد كلاهما أن ترتديه هي من أجلك.. نفس العطور يتعطّرن بها! كنتُ أتعجّب كيف تحب كلٌّ منهما نفس عطري، ولكنها خدعة ومكيدة منهن.. يتعطّرن لك بنفس

العطر في نفس المنزل حتى لا ينكشف أمرهن، كيف تفعل ذلك؟ نحن الثلاثة نتعطر بنفس العطر!

أنت لا تستحق الحياة.. لا تستحق كل تضحياتي؛ تناسَيتَ كل ما فعلته من أجلك.. تناسَيتَ إصابتك بشظية في ظهرك أثناء عملِكَ تسببت لك في عجز نصفي في قدميك وفي فحولتك التي كنتَ تتباهَى بها.. عجزٌ جسديٌّ وجنسيٌّ أيضًا، ترقد طريح الفراش.. ثلاثة أعوام كنتُ أنا فيها قدميك التي تمشى بها.. عينيك التي ترى بهما.. يديك التي تستند عليَّ ولا تقوى على الحراك بدوني، الاحتياجات الجنسية التي لبّيتُها لك حتى و أنت طريح الفراش.. رقصي لك وكأنني عروس في ليلة عرسها.. تعطّري بأفضل العطور من أجلك، أعيش مع جثة هامدة ومع ذلك تعايشْتُ مع الأمر وكأنك تحيا حقًّا بيننا، لكنك كنت ميتًا، والآن الأفضل لك أن تموت وتدفع ثمن تلك الخيانة هناك عند ربك، أما أنا فقد أموت أيضًا حزنًا وحسرة بعد خيانة صديقتي وأختي لي، كيف أن أعيش بينهما؟! كيف لي أن أحيا بين مجتمع يضج بالخيانة؟!

كما كنتُ أنا سبب بقائك في تلك الحياة طوال تلك الأعوام سأكون سبب نهايتك! جرعة زائدة من الدواء ستقضي عليك ولن يعرف أو يشعر أحد؛ فأنا الطبيب والقاتل الآن، أما أنا فلا موت لي ولا حياة، وأما أنت فسوف أتركك الآن على فراش الموت.

في حضنها

ما أن وضعَت يدها على وجهي إلا و انتفض جسدي كله، رغم أنها لم تكن تلك المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك، أمسكتُ يدها واستدرْتُ لأنظر لها، نظرت إليَّ وفي عينيها نظرات ما بين شوق وحزن ودموع تكاد تسيل.

انصرفَت.. خرجت مسرعة تركتني أبكي وحدي، حكايتنا معًا وأحداث حياتنا كلها رأيتُها تمرّ أمام عيني الآن.. طفولتنا وشبابنا.. بيتنا الهادئ الذي نسكن فيه منذ الصغر.. حافلة المدرسة التي كانت تقِلنا كل يوم صباحًا حتى كبرنا ومرّت السنوات.. شعر رأسي الذي كنا نصفّفُه مثل بعض ونتفق يوميًا على ما سنفعله في اليوم التالي.. ملابسنا التي كانت متماثلة حتى ظن الجميع أننا توأمان.. دراستنا الجامعية سويًا، أوراق الإجابة التي كنا نتبادلها معًا حتى ننجح سويًا، أكتب الإجابة بدلًا منها أحيانًا في مواد أتفوّق أنا فيها، وتكتب هي بدلًا مني في المواد التي تتفوق هي فيها.. هكذا كانت رحلتنا في التعليم، حتى رحلة العمل والكفاح.. آثرت الانزواء، وبعد الدراسة لم أعمل في بادئ الأمر، إلّا أنها شجّعَتني وحصلت على فرصة عمل جيدة معها في نفس المكان، نذهب سويًا ونعود سويًا حتى كان هذا اليوم.

– أنا لم أنقض عهدنا، صداقتنا مستمرة منذ الطفولة إلى الأبد، لن نفترق كما اتفقنا وتعاهدنا، لن يفرقنا أحد ولن يخون أحدنا الآخر.. هيا بنا الآن.

جذبتُ يدها وأمرتها أن تمشي معي، إلا أنها أوقفتني مرة أخرى والدمع من عينيها يسيل ليمحو كل المساحيق التي وضعتها على وجهها خصيصًا من أجل ليلتي، صرخَت فيّ تستحلفني أن أنطق بالحق:

- ما هذا الثوب الذي ترتدينه الآن؟! إنه ثوب زفافك، أليس كذلك أم هذه تخيلات وتهيؤات؟ أنتِ الآن ستتزوجين.. ستتركينني.. سترحلين و أبقى بمفردي.. ستكون لكِ حياة مختلفة، زوجة وأمًّا في يوم من الأيام، ستهتمين بهم و أكون أنا أمرًا مُهملًا في حياتك، ماضٍ سوف تتناسيه، أنا لم أعتد منك ذلك، ولم تكتفِ بذلك بل جعلتِني وصيفتك، ترتدين ثوبك الأبيض الجميل الذي اخترته معك، تتزينين بالعطور التي أحبها والمساحيق التي أعشق رؤيتك بها، وتجعلينني أمسك لك طرف ثيابك، وبعد ذلك تقولين لا خيانة للعهد ولا الوعود، وبعد قليل ستجعلينني أحتضنك الحضن الأخير!

الحضن والعناق بشدة وضمي إلى صدره كانت عاداته معي، احتضنني بشدة وقبّلَني في عنقي كما اعتاد دائمًا، مرّر يده على وجنتي ثم شفتي، ارتعشتُ بشدّة وتذكرتها، كيف كانت تفعل ذلك معي؟! كيف كانت لقاءاتنا الأسبوعية معًا، أفتقدها بشدة، ناداني مرة تلو الأخرى و أنا في غفوة، جسدي بين أحضانه يفتقد الإحساس، عقلي معها يناديها، وقلبي يخفق بشدة.. يفتقدها، أفقتُ على صوته مرة أخرى وهو يلعنني..

– أنتِ لا شعور لك ولا إحساس، أنت لا تشعرين بي.. أحضان وقبلات وأشواق و أنتِ جسد بلا روح.. بلا مشاعر، أحبك و أنت لا

تبادلينني ذلك، لماذا؟! لماذا تزوجتِ مني وقبلتِ بي؟! إذا كان في حياتك شخص آخر فلماذا لم تصارحيني؟ لماذا لم ترفضي الزواج مني؟

قبّلتُه، حاولتُ أن أحتضنه.. داعبته، إلا أنه استدار، نهض مسرعًا وارتدى ملابسه، تركني على الفراش.. جسدًا ممددًا ممزقًا بلا روح كما أخبرني، صرخت فيه أن ينتظر، إلا أنه رفض الاستجابة، غادر الحجرة وتركني أتمزق، أنا أخطأتُ في حقه وفي حقها وفي حق نفسي، لقد كانت محقّة عندما أخبرتني أنني سأتغير بعد الزواج وأهملها.. أنا حقًّا في اشتياق لها.

– الشوق هو ما دفعني للمجيء إليك اليوم.. أتوسل إليكِ أن تسامحيني، انظري في عينيّ.. المسِي يديّ، اجلسي أمامي دعيني أقدّم فروض الطاعة والولاء.

و افقَت وجلست وقسمات وجهها جامدة، لم تضحك ولم تبتسم، فقط وجهٌ متجهّم عابس حزين، كانت كذلك منذ افترقنا في ليلة زفافي، و انتظرت قليلًا، استجمعتُ قواي.. جثوتُ على ركبتي وقبّلتُ يديها، جفّفتُ دموعي.. واسترسلت في حديثي..

– تركتُ زوجي وبيتي من أجلكِ، أخبرتكِ أننا لن نفترق، وها أنا بين يديك اليوم، مر شهر فقط على فراقنا منذ تزوجت و أنا في عذاب كل يوم، لا أشعر بزوجي ولا أنفاسه.. لا رغبة فيّ من ناحيته، جسدي يرفضه، ارتبطت به إرضاء لأمي و أبي.. من أجل أن أكون زوجة وأمًّا كما يرغبان، لكنني اكتشفتُ أنني لن أكون امرأة سوى لكِ أنتِ فقط، أنا امرأة لا تحب الرجال ولا تهواهم، أنتِ فقط من استطعتِ أن تروي ظمأ هذا الجسد، أنتِ فقط من أطفأتِ جذوته وأشعلتِها وقتما رغبت، أنتِ فقط من جعلَتْني أشعر أنني أنثى، لم أشعر بدفء الحضن سوى بين أحضانك، أنا مخطئة أنني تركتُكِ، و أنتِ على حق أنني لن أستطيع أن أعيش من

دونك، و أنتِ أيضًا لن تستطيعي العيش بدوني؛ لذلك سأقدم لكِ اقتراحًا.. أن تتزوجي زوجي أنت أيضًا، وتأتين للمكوث معنا في نفس المنزل!

مرَّت الأيام مسرعة حتى صرخت فيَّ ونعتَتْني بالمجنونة؛ إذ كيف لنا أننا نجحنا في خطتنا وأوقَعْنا زوجي في حبالنا وتزوجها و أتَت معنا إلى البيت؟! كيف لي أن و افقته على ذلك و أقنعْتُه بالزواج منها بعدما دبّرنا له مكيدة من كيد النساء؟!

كانت الخطة هي الإغواء.. ما اجتمع رجل وامرأة إلا وثالثهما الشيطان، وكنت أنا إبليس، وكانت هي زليخة.. أغوته وأغرته حتى أوقعته في شراك وخداع وزواج عرفي، جهزنا له.. تسجيلات بالأحاديث والحوارات التي دارت بينهما.. مواعيد ومقابلات غرامية بينهما هنا في فراش منزلنا وتحت عيني، حتى حان الوقت للقضاء عليه، انقضَضتُ عليهما في اللحظة التي اتفقنا عليها سويًّا وهما على فراشي يتقلّبان ويقبّلان بعضهما البعض، حاول الهرب، إلا أنّني كنت قد أغلقتُ أبواب الحجرة خلفي، بكيت وبكت هي أيضًا، صرختُ فيهما ألعن الثقة والأمانة.. ألعن الصديقة والزوج، صرخ فيَّ وتوسل إليَّ وتقدما بالاعتذار، كذبَت عليه واستكملَت أداء دورها على المسرح..

– هو زوجي.. و أنت صديقتي، ونحن لم نخُنك، كنا سنعترف لك، أنتِ لديكِ مشاكل معه.. ولا تحبينه، أنت مريضة نفسيًّا ولا تحبين الرجال.. جسدُكِ يرفضهم، وخالد يحبك وخاف من الأذى النفسي عليكِ، ورفض أن يتركك و أنت في مثل تلك الحالة، حاولت أن أتكلم معه وأن أقرّبَ بينكما وأصلح الأحوال بينكما، إلا أننا تواعدنا.. تكلمنا.. تحاببنا.. تزوجنا.

لم أصدق أذني كما أوهمتُه بذلك، كِلْت لهما السباب، حتى هز رأسه وصدّق على كلامها، وأخبرني بصدق هذا الحديث، و أبلغني أنه سيعدل

بيننا.. وأن هذا الأمر سيصبح سرًّا بيننا نحن الثلاثة فقط، رقص قلبي طربًا و أنا أراه يرتعش أمامي ويلملم ملابسه، وهي أيضًا تنهي دورها المرسوم بعناية.. تنهض وترتدي ملابسها، كم أتمنى لو ارتميتُ في أحضانها في تلك اللحظة! لكنني اعتبرتها لحظة بداية الانتصار، ناديتُه وأعلنتُ لهما مو افقتي على أن يعيشا معي في منزلنا، وبذلك سأكون في حضن حبيبتي.

أرتمي في حضن زوجي ليلة وهو يذهب إليها ليلة أخرى، و أنا وهي في أحضان وملذّات وسعادة في غيابه، نحن الثلاثة حضن واحد.. دفء الحب يجمع بيننا.. أجسادُنا ارتاحت وهدأَت وكل منا وجد ضالته، أخبَرْنا الناس بأنها تعيش معنا فترة مؤقتة لظروف عملها، ولكننا في الحقيقة نحيا في رحاب الحب.. نحيا في إسعاد بعضنا البعض، وهو مضحوك عليه بيننا.. يعيش في وَهْمٍ وكذب وكأنه شهريار الذي تزوج الآلاف من النساء.. يشعر بنشوة وسعادة الانتصار، ولكن الحقيقة هي أننا من انتصَرنا؛ أنا انتصرتُ لجسدي الذي أحَبَّ جسد صديقتي التي استطاعت أن تحتويه وتفهمه منذ الصغر، منذ أن التقَت أعيننا في الطفولة وامتدت يدها على جسدي منذ طفولتي في حافلة المدرسة وفي منزلنا، كنا نمرح سويًّا ونتلذّذ بهذا الأمر، واعتقدنا أنه أمر مؤقت ولكنه استمر وأصبح إدمانًا، لم يشعر أهلنا بما نفعل ولم نخبر أحدًا، فقط اللذة هي من كانت تقودنا، حتى كان يومنا هذا الذي مارسنا فيه الحبَّ واستمررنا كذلك سنوات، فكيف لهم أن يفرقوا بيننا؟! ثورة الجسد لم يستطع أحدنا أن يسيطر عليها.. نداء الحب والحضن هو من قادنا إلى أن نكمل حياتنا في حضن واحد، لن يصدق هو أو أي شخص أنّني تنازلت عن زوجي من أجل صديقتي، لكنني تنازلت من أجل حضنها!

قبلات محرمة

أسمع دقات قلبه تناديني.. تنطق اسمي، أتمنّى لو شققتُ صدره واختبأتُ بين أضلعه، كنت أخشى العالم كله وأرتمي في أحضانه بحثًا عن الأمان، استسلمتُ له وأعطيتُه قلبي وعقلي، والآن أعطيته جسدي وروحي أيضًا، فليفعل ما شاء، ليس هناك ما أخشاه معه.

داعبَ بيده خصلات شعرى التي انسدَلَت على وجهى، ويده الأخرى تعانق يدِي، تتشابك أصابعنا، ورأسي على صدره المتهدّج يعلو ويهبط كموجات بحر في نهار الصيف، موجات خفيفة متسارعة تقذِفُ بي على شواطئ أفكار مضلّلة قادتنا إلى هنا، يبكي و أنا أيضًا كلّما فعلنا فعلتنا تلك، نتذكر كلانا أننا نخطئ في حق أنفسنا وفي حق من حولنا.. زوجي و أبنائي وزوجته و أبنائه، لكننا نلتمس الأعذار دائمًا ونعاود الاستغفار بعد الاغتسال.. والصلاة!

- نعم إنها قبلات محرمة بيننا، أنا خائنة لنفسي ولزوجي و ابنتي وأهلي أجمعين، و أنتَ أيضًا خائن لصديقِك.. أعز أصدقائك، هل تتذكر كلماته معك دائمًا؟! أنه أستأمنك عليَّ وعلى ابنتي عند سفره، تركنا أمانة في عنقك.. أمانة أنت خنتها.

استمع إليَّ في صمت رهيب، كعادته دائمًا.. الانتظاروعدم المقاطعة ثم الرد، بدأ يستجمع قواه مرة أخرى، جذبني من شعرى برفق ورفع رأسي

من فوق صدره، ثم قبّلَني في جبيني، ومسح دموع عيني بيده الحانية التي كانت تعبث منذ قليل في جسدي كله، احتضنَني بشدة وضمّني إليه بكل قوة و أنا لا أنطق، أحاول النظر في عينيه ولكنه يتحاشى النظر إليَّ.. يعرف أنها نقطة ضعفه، بكيتُ بشدة و انتزعتُ نفسي من بين يديه و ابتعدت إلى الوراء قليلًا.. حدقت فيه.

صديق زوجي.. الصديق.. الصادق الأمين كما كان زوجي يلقبه دائمًا، المقرب إليه، بل أخوه الذي لم تلده أمه كما أخبرني، الذي كان يخرج معه ويسافرا سويًّا في رحلات العمل.. الذي كان سره ومأمنه، تقرّبَ مرات للسؤال عنا كما أمره زوجي من قبل، أذهب معه أنا و ابنتي في إحدى الليالي الممطرة إلى الطبيب.

– ابنتي مريضة و أتمنى لو تأتي لتصطحبنا إلى طبيبها؛ فالأرض ممطرة وأخشى القيادة في ذلك الوقت.

ما أن ألقيتُ على مسامعه تلك العبارة إلا وكان أمام منزلنا يطرق الباب، ثم يدخل ليحمل مريم ونذهب إلى الطبيب.

بكيتُ بشدة في تلك الليلة و أنا في الفراش بجوار مريم ابنتي الوحيدة، وهو في خارج الحجرة ينتظرنا، يضع زجاجات الدواء أمامه ويكتب ورقة بالمواعيد المحددة من الطبيب، غفوتُ بجوار ابنتي ونام هو الآخر على الأريكة خارج الحجرة في منزلنا، صحوتُ من نومي وجدته في انتظاري، قبّلتُه على يده بكل امتنان لما فعله معنا، تكلّمتُ مع زوجي وأخبرته بليلتنا القاسية التي حدثَت لنا وكيف أنقذ هشام ابنتنا، ولكنني لم أخبره بمبيته عندنا، تكلما سويًّا وتركتُه لأعد له الإفطار، تحدثنا كثيرًا و افترقنا على أمل اللقاء ليلًا، وليلة بعد أخرى ولقاء بعد آخر وجدتُني بين أحضانه يقبّلُني ويحتويني، بعدما أحسَستُ باحتياجي إلى من يحميني من هذا الزمان، طال سفر زوجي، و اقترب هو منّي أكثر وأكثر، حضن الامتنان

أصبَح حضن الاشتياق، وقبلة الشكر على يديه أصبحت قُبلَة العشاق، وكلّما همَمتُ التوبة أخبرني بخيانة زوجي لي من قبل و أنه شاهد على ذلك، وأن ما نفعله ليس خيانة، بل هو أخذ حقنا من الزمان الذي ضنَّ علينا بالحب! أحبَبتُه و أنا لم أعرف الحب من قبل مع زوجي الذي كنت له قطعة أخرى من قطع المكعبات التي يملأ بها حياته.

مرارًا حاولتُ أن أحبه وأن أخبره أن الحبَّ أساس الحياة، إلا أنه كان يحب المادة والشهرة والنساء دوني، استمرَّت حياتي معه حفاظًا على ابنتي وعلى وضعنا، لقاءاتنا على الفراش كانت بأمْرٍ منه تلبية لرغبته، أما أنا ورغباتي فليضرب بها عرض الحائط، يفرغ شهوته ولا ينتظرني، يقضي ليلته كما يفعل مع غير من الغواني.. ويتناسى أني زوجته.

إلا أنه كان لي طوق النجاة، منحة إلهية لكي أعلم أن الحب ما زال موجودًا، و أنه بالفعل أساس الحياة، أيام تنقضي وليالٍ تمر لا نفترق فيها عن بعضنا البعض، تذهب ابنتي إلى النوم وأضَعُ لها مخدرًا خفيفًا لتستغرق في النوم أطول وقت ممكن، وأذهب لأتهيأ له، أرتدي أفضل ملابسي و أتعطّر بالعطر الذي يحبه، أُصفّف شعري و أنتظره كما تنتظر العروس زوجها ليلة الزفاف، وكانت كل الليالي لنا ليلة زفاف و أفراح.. نرقص سويًّا.. نغتسل ونبدأ في الصلاة، ثم نبدأ في نهل نصيبنا من الحب والأشواق، قبُلاتي تزيّن جسده، ودخان سجائره يغطيني، أتبادل معه السجائر و أنا لم أشربها من قبل! إلا أنني أحببتُ كل ما يحبه، وفعلت كل ما يحبه.. رقصت.. ارتميتُ في حضنه أختبئ من العالم، ونسيت أن تلك القبلات محرمة، أما هو فلم يبالِي، كل كلامه كان دفاعًا عن حبنا المحرم، وعن قبلاتنا التي اعتبرها ثمنًا زهيدًا لما لاقيناه في حياتنا.. زوجة لا تحتويه وتملأ حياته بالمشاكل دائمًا وتثقل كاهله، ولا تقدّر شعوره ولا احتياجاته، تراه دائمًا حافظة نقود تسحب منها وقتما تشاء.. تصرف على ملذاتها وسهراتها مع صديقاتها، أما هو فليذهب حبه ورغباته للجحيم؛ فهو

محروم من الحب مثلي، ويرى أننا جئنا لنتلاقَى في الموعد المناسب، كان هو نبي الحب والحرية لي، وكنت أنا فينوس آلهة الجمال له.. يتعبد فيّ و أنا أؤمن به، يتلو رسالته عليّ ويُلقي عليّ مزاميره يرتل فيحسن الترتيل، آمنتُ به و أيقنتُ أن القدر كان بنا رحيمًا لنلتقي الآن، لم يكن قرارنا ولا اختيارنا، بل كان اختيار القدر وقراره، كان القرار هو اللقاء والحب.. العناق والأشواق.. القبلات، كلانا محروم من الحب.. مقهور في زواجه، يعيش في سجنٍ مِن اختياره.. كلانا يبحث عن الحرية، في حاجة إلى حضن واحتواء، كلانا في حاجة إلى تلك القبلات التي كنتُ أتمناها كل يوم.

أغمضتُ عيني وغفوتُ على صدره أنام على أصوات دقات قلبه التي تنطق اسمي، أصحو على قبلاتِه، شفتاي تناديه ليروِيني.. قبلات محرمة.

نصف مصرية

أمسكتُ سيجارتي وأشعلتُها بعصبية شديدة كعادتي دائمًا، نفثْتُ دخانها عاليًا؛ فتطاير ليرسم خيالات أمامي، فها هو وجه أبي الراحل.. ووجه أمي المريضة.. ينظران لي، وخيالاتٌ أخرى صغيرة تشبه خيالات أبنائي.

أنفاس متسارعة.. ودموع تنساب من عيني لتختلط بدخان سجائري؛ فترسم شوارع من الأسفلت الأسود أسفل عيني، خطوط متعرجة ترتسم على وجهي تحفُرُ فيه بكل غلظة لتترك آثارها فيه، علامات مميزة يعرفني الناس بها كامرأة مشوهة الوجه.

-عليكِ أن تهدئي قليلًا ثم تحدّثي، تنفسي بعمق.. تذكري تدريباتنا لتتحكمي في أعصابك.

نظرتُ إليه لا أعي كلامه، محاولات يائسة للتحكّم في أعصابي المنفلتة دائمًا، بكاء مستمر كلما اعتدت كل ليلة، وبصعوبة شديدة وبتلعثم الأطفال أخرجتُ الكلمات من فمّي، وتحدثت..

لقد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، ولم تتسع لي السماء أيضًا حتى أيقنتُ أنها ستنطبق عليَّ؛ فأنا أتعس إنسانة في الوجود، حظي عاثر دائمًا، وأمواجٌ متلاطمة تقذفني من أسوء إلى أسوء حتى تمنيت أن تقذف بي في فم الحوت كيونس لأختفي من تلك الحياة.. التعاسة تلاحقني.

لقد كنتُ دائمًا هكذا أحدث نفسي كل يوم، أرتدي دائمًا ملابس الحِداد حزنًا على أبي، وعلى حظي وعمري الذي أفنيتُه وضاع هباءً منثورًا، فمِن تربية مجحفة بكل ما فيها من قهْرٍ وظلم وتفرقة بيني وبين إخوتي.. إلى زواج فاشل.. إلى ظلم في العمل ومكائد من زملاء العمل حقدًا عليَّ، ظلمات بعضها فوق بعض.

انتظرتُ تعليقه لكنه لم ينطق، استمر في تدوين ملاحظاته باهتمام، وفي يده الأخرى مذكّراتي التي دوّنتُها.. يقرأها باهتمام وكأنها ألواح موسى.

الصفحة رقم خمسة وعشرون من مذاكراتكِ، ثم بدأ في التلاوة:

نشأتُ بعيدًا عن الأهل والجيران والأصدقاء.. عشتُ في عزلة تامة، لم أكن أعرف سوى أبي وأمي وأخويّ حسين وعمر، لم تكن لي أخت في وقت كنت أبحثُ فيه عنها.. تفرح معي وتشاركني حزني وفرحي.. تشاركني أصعب لحظات حياتي وأدق تفاصيلها، ومن كان لي غير الأخت أحكي لها عن تغيّر جغرافيّة جسدي وتغيّر التضاريس التي ظهرت فيه والنتوءات التي حدثت وبرزت والدماء التي سالت ولمَ سالت؟ مَن كان يمكن أن أحكي له غيرها؟! نعم كانت أمي تعيش معنا في المنزل، ولكنها كانت غريبة عنَّا حقًّا، ولا تتحدث معنا إلا قليلًا، ولا تتواجد كثيرًا في المنزِل؛ فهي تعمل مع والدي في الجامعة في تلك الدولة العربية الخليجية الصحراوية التي رمالُها واللون الأصفر فيها يطغوان عليها، وتكاد الأرض المنبسطة والعمار والخضرة فيها تكون عملة نادرة، وكأن تلك الأراضي المنبسطة المأهولة بالسكان هي جزيرة وسط بحر من الرمال.

لم تكن لي صديقة في تلك البلاد.. أمي و أبي يرفضان ذلك بحجة التربية والمحافظة علينا من الاختلاط؛ فأصبحَت حياتي كالصحراء الجرداء التي تحيط بنا، أنعزل عن العالم في حجرتي التي تتشَابَه مع خيام الصحراء.

- كان يجب أن تخرجي من تلك العزلة، مات من مات، إنه والدك وما فعله لم يكن متعمَّدًا، وإنما كانت أخطاء غير مقصودة، عليك بالتسامح والغفران، وهذه أولى خطوات العلاج النفسي الذي تطلبينه.

- التعايش والتسامح هما من صفات الأنبياء والصدّيقِين، وأنا لست منهم، أمي وأبي هما سبب شقائي وما أنا فيه الآن، هم قومي الذين أخرجوني من قريتي.

عبد المنعم شاب من صعيد مصر، نشأ وتربى فيها ولوّنَته شمسها، وصبغته بصبغتها الداكنة، كافح في دراسته الأزهرية حتى تحقّق أمله وأصبح معيدًا، وتدرج في سلك التدريس بجامعة الأزهر في القاهرة، بعيدًا عن أهله، ساعدَته نشأتُه ودراسته وتربيته على أن يكون متحفّظًا قليل الكلام والاختلاط والتعارف بالناس.

التقت عيناه بـ"أنآن".. الفتاة المسلمة الصينية التي قدِمَت إلى مصر لتنهَل من نهر علمها وفيض معلميه بالأزهر، واسمها يعني السلام بالصينية، هو من يدرّس لها، تطورت العلاقة بين التلميذة والأستاذ من نظرات وإعجاب إلى لقاءات وغراميات وحب، ولأول مرة في حياته يعرف معنى الحب ومعنى العلاقة النسائية، ارتبط بشدة بها وقرر السفر إلى أهلها في الصين؛ ليتزوجا هناك، ويعمل أيضًا في إحدى جامعتها.

ثم عادا إلى مصر.. عاشت أنآن فترة في بلدته مع عائلته بمفردها، وتركته يذهب إلى عمله في القاهرة، إلا أنها لم تجد ترحيبًا من أهل زوجها لها، ولمَ لا؟ فهي في نظرهم حواء التي أخرجَت آدم من الجنة، هي التي ساعدته على الخطيئة وأجبرته على الزواج منها بدلًا من بنات عمه، فلمن الأرض والثروات بعد وفاة عمه؟ ما زالت تقاليد وعادات الصعيد تسيطر عليهم، تحمّلَت أنآن من أجل زوجها وعاشت مخلصة له، وأنجبت حسين، وتصاعدَت حدة الخلافات في العائلة، وعندها قرر عبد المنعم أن

يرحل بزوجته و ابنه من مصر، وخرجوا من قريته التي عذبته ولم تؤمن به، هاجرا وسافرا إلى الخليج و أنجباني هناك أنا زينب، ثم أخي الأصغر عمر، و اتجهت أنآن للعمل مع عبد المنعم في الجامعة و انطلقا يحصدان المال والنجاح.

- زينب، اهتمي بأخويكِ، وعليكِ إعداد الطعام لهما.

- زينب، عليكِ أن تُنهِي مذاكرتك مبكرًا حتى تقومي بترتيب المنزل.

- زينب، لا تشاهدي المسلسلات حتى يشاهد أخوك المباراة.

أمي تُلقِي إليَّ التعليمات اليومية، أنظر إليها وأهز رأسي لها بالإيجاب، تُمسكُنِي من يدي وتأمرُني أن أنظر إليها و أقول نعم فهمت وسأنفّذ، مثل عسكري في الجيش كنت أنا، وهي قائدي برتبه الكثيرة والكل يخشاه.

هكذا وجدتُ نفسي في المنزل وحيدة لمدة سبعة عشر عامًا.. دراسة فقط لا غير.. لا أهل ولا أصدقاء، ولم يكن لنا اختلاط بأهل والدي أو أهل والدتي؛ فهما بعيدان عن الأهل، ونذهب لزيارتهما في مصر والصين بالتناوب كل عام، وأحيانًا في المناسبات.

أتحدّث العربية والصينية.. أنا نصف مصرية ونصف صينية، مشتّتة لا أعرف لي هوية أو انتماء، هل أحب مصر أم الصين؟ أم تلك الدولة التي نعيش فيها؟

صفحة خمسة وخمسون من مذكرات زينب..

"نهضتُ من مقعدي ومشيتُ خطوات بطيئة متثاقلة مليئة بالهموم، نظرت إلى سيجارتي التي أطفأها الطبيبُ، ثم مددتُ يدي إلى حقيبتي لإشعال واحدة أخرى؛ فجذبَها من يدي وألقاها أرضًا، أمسك يدي وأمرَني بالجلوس ومواصلة الحديث مرة أخرى، وجدتُ نفسي كالعادة تتلقَّى الأوامر وتنفذ فقط.. سمعًا وطاعة.

عدتُ إلى مصر مع أهلي والتحَقتُ بالجامعة، وتخرّجتُ منها بلا علاقات ولا حب ولا مراهقة ولا صداقة سوى صديقة واحدة، وأنهيت فترة دراستي بنجاح، وبعدها تزوّجتُ زواجًا تقليديًّا من أحد أقارب أبي.. زواج صالونات، عشتُ معه سنوات وأنا لا أفهم معنى الزواج، لم أفهم معنى العلاقة الحميمة بين الزوجين وكيف لي أداؤها، وأمي لم تشرح لي ذلك، وإن شرحَت فالأسلوب يختلف تمامًا عما يحدثُ في مصر، العادات لديهم مختلفة عن عادات المصريين، ومرَّت بي الأيام والسنون في تلاطم ومشاحنات مع زوجي.

-أنت امرأة معقدة نفسيًّا مريضة، وأنا لن أقوى على الحياة مع مريضة مثلك ترفض الاعتراف بالمرض أو تلقِّي العلاج، أنا من أخطأت.. أنتِ طالق.

هكذا انتهت حياتنا، ذلك أفضل كثيرًا! ورقة طلاق كانت في يدي تكتب نهاية حلقة أخرى من حلقات مسلسل فاشل أعيش فيه.

حسن وزياد ولداي هما ثمرة كفاحي في تلك الحياة، بل هما كل ما أملك فيها، طلب مني زوجي النزول للعمل لمساعدته في شئون الحياة، وبالفعل حصلتُ على عمل مرموق بإحدى الشركات الكبرى، ولم يكن زوجي يقصد من عملي إلا أن يستحوذ على أموالي، وبالفعل كنت أعمل خارج المنزل من أجله فقط ليس من أجل ذاتي ومستقبلي، وداخل المنزل من أجله ومن أجل أبنائي، لم تكن لي حياة خاصة أو أموال خاصة بي، كل ما أملكُه من أجل زوجي، كل حياتي من أجل الآخرين.. طفولتي من أجل إخوتي، والآن حياتي من أجل أبنائي.

كان الزواج هو المهرب لي من حياة السجن التي كنتُ أحياها في منزل أبي، ولكني كنتُ مخطئة؛ فلم تختلف حياتي قبل الزواج عن حياتي بعد الزواج إلا قليلًا؛ فالقيود أصبحت أكثر والتكبيل والتنكيل زاد بي، والهمّ

أصبح زادي اليومي.. عذاب بالنهار.. ومكائد تدبّر لي في العمل بعدما تفوّقتُ سريعًا فيه، وعذاب بالليل مع زوجي وطباعه وعنفه الذي لا يُحتمَل، اغتصاب أحيانًا ومضاجعة بالقوة وتمزيق للملابس وتلذّذ بسماع صراخي وتأوّهاتي، وكانت تلك أول مرة أرى فيها الاغتصاب الزوجي الذي كنتُ أسمع عنه، ولكن الآن أعيش فيه، رجل يتميّز بالسادية وتعذيب ضحاياه، وكلما كنت أشكو كلما زاد في تعذيبي واتهامي بالجنون.

– فُكّ قيدي، وكفى ضربًا بالسياط الذي يُقطّع في جسدي، أي دين هذا الذي يجعلُك تُقيّد زوجتك وتقطّع ملابسها وتجامعها غصبًا عنها؟! أي شعور وأحاسيس لك! أنا أكرهك.

هكذا كنتُ أصرخ إليه و أتذكر بلال وعذابه في الصحراء وسيّده يلقي الصخرة على صدره، كان هو الصخرة التي على صدري، ولم يكن لي ملجأ.

– لن تتركي منزل زوجك.. هذا منزلك، ليس لدينا بنات تترك منزل الزوجية وتغضب لتعود إلينا.

كانت تلك كلمات أبي يمنعني من ترك المنزل لزوجي، ويأمرني بالبقاء خادمة معه، ويقول إن ذلك من عادات وتقاليد الصعيد التي تربَّى ونشأ عليها، وأنّ عليّ السمع والطاعة فقط لا غير، لا تتذمّري.. لا تشتكِي... لا تغضبي!

أمي استأثر عليها أخواي كما استأثروا بحب والدي؛ فالبنت في نظره عار وفضيحة، أما الولد فهو سند ووتد مثلما يقول، تباعدَت أمي عني أكثر فأكثر، وأحسَستُ أن هناك شيئًا يُباعد بيني وبينها، لم أحبها كما تفعل كل البنات مع أمهاتهن، لم أتّخذها لي صديقة في يوم من الأيام، ولكنها أمي فقط لا غير.

لم تستمر حياتي الزوجية كثيرًا.. انفصال وطلاق بعد زواج دام خمس سنوات فقط لا غير، تحملت الكثير من أجل أبنائي.. حملتُهم وَهنًا ووضعتُهم وهنًا، واعتبرتهم لي نخلة مريم التي سأهُزّها وستنزل عليَّ رطبًا لآكله، عدتُ أجُرّ أذيال الخيبة إلى منزل والدي.. الدكتور الجامعي.. الذي لفظني من قبل، ولكنه الآن يفتح ذراعيه وصدره لي ولأولادي باعتذار غير مُعلَن، ولكن دائمًا كان القدر غير رحيم بي، دبر لي أخواي مكائد كما فعل إخوة يوسف به؛ لخوفهما من استئثاري بشقة أبي المريض، ولذلك قررت أن أنفصل عن والدي بحياتي وأن أحيا حياة مستقلة في منزل آخر بالقرب منهما، أتحمل نفقات أبنائي من عملي.. هذا العمل كان هو الحسنة الوحيدة من زواجي.

– يجب أن تحضر زينب لتحيا هنا مع أولادها، هذا منزلها كما هو منزلكم.

كانت تلك كلمات أبي عندما اشتدّ عليه المرض وحاول أن يتوب، اجتمع مع أمي وأخويّ وأعلن لهم ذلك.

اعتقدتُ وقتها أن الحياة بدأت تبتسم لي حيث أبي يقربني منه، ولكن أمي ماذا عنها؟! عشتُ في كنف أبي وفي خدمته طوال ثلاثة أعوام، وخلالها بدأت علاقتي بأمي تتحسن نتيجة حبها لأولادي، حتى تُوفّي والدي رحمه الله، وعندها أيقنتُ أن الدنيا غير منصفة لي أبدًا؛ فها هو سندي يموت ويتركني فريسة بين أيدي أخويّ وأمي.

تعلّقَت أمي بشدة بأولادي وتحسّنَت علاقتها بي، مع استمرار اختلافنا معًا في الطباع والمزاج، حتى الأكل والشرب.. لم أستطع تركها.. لقب مطلقة يلازمني، صديقات قليلات.. انخدعت في الكثير منهُنّ، وأصبحتُ مُطارِدَة في كل الأماكن، نظراتُ الشكّ تحيط بي من صديقاتي؛ فالمتزوجات تخشى مني أن أخطف أزواجهن.

- الحياة تستمر.. والقافلة تسير، تزوّجي.. جسدك يحتاج إلى يدٍ تداعبه، شفتاك تئن من الوجع.

- وأولادي ماذا أفعل معهم؟!

- هم الآن ليسوا أطفالًا وسيتعايشون.

اقتنعتُ بكلام شيريهان صديقتي التي كانت لي شيطانًا آخر في حياتي.. يزيّن لي الحياة والزواج من جديد، وبالفعل تزوّجتُ من زميل لها، وملّكتُه أمرِي ثم مالي ثم جسدي بعدما تزوجنا، طرد أولادي من منزلي الذي تزوجنا فيه الذي ورثته عن أبي، تركتُهما مع أمي ثم طردني بعدما سلب كل أموالي.. بعدما أمرني أن أترك العمل لأنه سيتكفّل بي، وأنه يخشَى نظرات الناس ويغار عليَّ، تمهّلَ ثم تمكّن، ثم أمر فأطعته، ثم كانت النهاية؛ فالقانون لا يحمي المغفلين أمثالي!

تفاوضنا معًا حتى تنازلتُ عن حقوقي، وعُدتُ إلى أمي في محاولة للتعايش السلمي معها مرة أخرى، إلا أن تلك التجربة أفقدتني الكثير، قضيتُ فترةً من عمري فاقدة الوعي والتركيز، أبحثُ عن التغيير في حياتي؛ فتذوّقتُ طعْم الانحراف وبِعتُ جسدي بدون ثمن، تركتُه بين يد من يحاول أن يتقرّب مني فقط لكي تهدأ ثورته وتنطفئ جذوته، خطايا تلتها خطايا وأنا بلا وعي؛ فأنا نصف إنسانة، غير مكتملة الملامح ولا النمو، تذوّقتُ طعم الخطأ، لكنه كان مريرًا، تذكّرتُ كيف تم اختيار اسمي تيمُّنًا برؤية جدتي للسيدة زينب، حملتُ اسمها ولم أحمل أخلاقها، خرجتُ من عباءة الفتاة الهادئة الخجولة المنطوية.. إلى فتاة تخلع ملابسها وترميها في النهر لتبقَى عارية وتُخفِي وجهها عن المرآة حتى لا ترى ملامحها، الوجه المستدير ذا اللون الداكن والعين الضيقة، أمسكْتُ سكينًا أُنهِي به حياة امرأة نصف مصرية.

الحجرة

اعتدتُ أن أصحو من نومي كل يوم على أصوات طقطقة أخشاب الفراش من فوقي، تنامُ الناس فوق الفراش إلا أنا، كانت والدتي وزوجها ينامان معًا في الدور العلوي من الفراش، يعتلي أمي ويعتلينا أسفل منه أنا وأختي، هذا الفراش الذي يئِنّ ويشتكي لنا من وزن زوج أمي بجسده الثقيل وسائله الذي يتسرب من بين أخشاب الفراش علينا أحيانًا، أما أخي فهو يفترش الأرض بجوارنا وقد أنهكَه التعب بعد سير طويل طوال اليوم يبيع ويشتري في الأجهزة المستعملة والأشياء القديمة؛ فهو كما يقال عنه بائع للروبابيكا، يبيعها ويشتريها طوال اليوم بمال بخس وزهيد؛ ليأخذ في نهاية اليوم زوجُ أمِّنا أموال تلك البضاعة وتلك التجارة ويؤثرها لنفسه؛ فيبتاع المخدرات ويتناولها مع أصدقائه في نفس الحجرة، وأعينهم -وأحيانًا أيديهم- أيضًا تنهش في جسدي في محاولة منهم لاستكشاف خريطة هذا الجسد وتضاريسه وجباله ومنابع أنهاره، أعيش مع أختي وأمي في خدمة هذا الرجل البغيض وأصدقائه مع محاولة المحافظة على بضاعتي الطبيعية وأعضاء جسدي في لوحة العرض فقط دون اللمس.

أصوات صرخات تأتي من حجرتنا، أسرعتُ ودفعت الباب الموصد بجسدي، وجدتُه في محاولة أخرى للاعتداء على أختي.

صرختُ فيه وحاولت دفعه مرات ومرات، جسده ممتلئ وثقيل ليتحرك، تصرخ من أسفله وتحاولُ أن تُفلِتَ نفسها من بين يديه، همَمتُ أن أقذفه بزجاجة الخمر الفاسدة التي يتناولها، أمسكها ودفعني أنا أيضًا، سقطتُ على رأسي كنتُ لا أرى شيئًا، إلا أنه اقترب مني؛ فوجدتُ أختي تأتي مسرعة من خلفه بعد أن نهض من فوقها وهي شبه عارية، ملابسها ممزقة من اعتدائه عليها، أمسكَت برقبته من الخلف فمنعته من الاعتداء عليَّ، بصق علينا وتركنا ودماؤنا تسيل أرضًا.

- أمُّك و أنتِ وأختك كلكُنّ من أملاكي أفعل بها ما أريد، إن لم يكن اليوم سيكون غدًا أو بعده.. المنطقة كلها لا تقول لي لا.

استمر في السّباب والوعيد، وأخرج عضوه أمامنا محذرًا أنه لن يسكت وسيفعل فعلته يومًا ما.

كان يفرضُ سطوته على المنطقة الشعبية التي نسكن بها، إحدى حواري منشأة ناصر.. يبيع المخدرات ويتاجر فيها، ويتناولها ليلًا مع مزيد من الخمر، الأيام تمضي علينا ما بين توسّلات أن يرحمنا من تلك المعيشة البغيضة الممتلئة بطعم الصبّار، إلا أنه كان يأبَى ذلك ويُصرّ على أفعاله الدنيئة، كانت لنا محاولات مع إخوتي وأمي على الهرب من تلك البقعة غير المباركة، والفرار والنجاة بأنفسنا من براثن هذا الوحش الهارب من كتب التاريخ.. إنه الناجي الوحيد من عصر آكلي لحوم البشر! أشعث الرأس.. كثيف شعر الصدر وكأنه غابات السافانا.. كريه الرائحة كرائحةِ حيوان مات وتحلّل من سنوات، ولكن تلك المحاولات كثيرًا ما تبوءُ بالفشل نظرًا لسيطرة هذا الوحش على المنطقة بأسرها بمخدراته وملذاته التي يسقيها ويقدّمُها قربانًا للاتباع من حوله حتى يطيعوه، حتى أصبح الملك المتوج على المنطقة؛ فالسيطرة والسلطان له، اكتفيت من التعليم بالحصول على مؤهل متوسط لكي أعمل وأرعى أمي وإخوتي،

وكان أيضًا ذلك طبقًا لتعليمات الملك الذي نحيا في كنفه، الذي أمرَ أبي أن يطلّق أمي حتى يتزوجها، وعندما رفض قام باغتصابها أمام أعين والدي، وعمل على نفيه خارج البلاد، وأرسله في غيابات السجن بتهمة حيازة مخدّرات، وما أسهلها من تهمة في هذا الزمان العجيب!

دخل والدي السجن حتى تُوفّي فيه، ولم تجد أمي مفرًّا إلا من الزواج من هذا الشخص الذي انتقل ليعيش معنا في نفس الحجرة.. نعم إنها حجرة واحدة نحيا فيها جميعًا؛ حيث لا مأوى لنا في منشأة ناصر سوى تلك الحجرة الرطبة الكئيبة التي لها حمام مشترك مع حجرات أخرى متجاورة، شهدَت أجمل وأسوأ أيام حياتنا جميعًا، كانت شاهدة على مولدي أنا وإخوتي، احتضنتنا حوائطها يومًا ولفظتنا أيامًا، عاش معنا وعاث في الأرض فسادًا وسوءًا، يمارس حياته الزوجية بكل ما فيها من أصوات وتحركات وتقلبات وتأوّهات، ويسمع كل من بالحجرة ذلك، بل ويشاهدونه أحيانًا؛ فهو لا يتورّع عن فعل ما يريده مهما كان في أي وقت وفي أي مكان، حتى ضاقت الحجرة بنا.

– سأتزوّجُكِ يا إيمان وتكونين ملكًا لي، سيكون لكِ منزل خاص بك، لن تراكِ أعين سواي.

كانت تلك كلمات صاحب معرض الملابس الذي أعمل به، نجحَت خطتي في الإيقاع به، كان هو الملاذ والمهرب لي مما أنا فيه، لقد قررتُ الفرار من السجن والسجَّان، استعرضت جسدي مرارًا أمامه وراودتُه عن نفسه، و أنا أعرف أن هذا هو سلاحي الوحيد، تلك هي بضاعتي وسِلعَتي التي أستطيع أن أروّجَها وأشتري بها حريتي أنا وأهلي.

كان زوجي شخصًا بغيضًا لي، إلا أنه كان خطوة نحو الهروب، يكبرُني سنًّا بمراحل عديدة و أنا الزوجة الثانية له، كان من أصدقاء الملك وإن كان يصغره سنًا، إلا أنه يفوقه مالًا، وقررتُ الانتقال معه وحاولت أن

آخذ أمي وإخوتي معي كما فعل يوسف مع إخوته، إلا أن الملك رفض وكذلك زوجي، الآن يوجد مكانٌ لي يليق نوعًا ما ببَنِي البشر، ومع مرور الأيام استطعتُ أن آخذ أمي معي بحجة مرضها وحاجتها إلى الرعاية دائمًا، ومرَّت أيام طويلة مريرة.. لا فرح فيها ولا سعادة، اللهم إلا بعد أن رزقني الله بطفلة جميلة من هذا الزوج شبيه الوحش.. الذي ألزمني هذا المنزل وأغلقه من خلفه، وأصبحَت حياتي كلها مع أمي و ابنتي فقط داخل تلك الجدران.. سجن جديد نحيا فيه بعيدًا عن وحش وأخت وأخ فليرعهما الله، وكأنه قد كُتِب علينا أن نسكن في سجون وقبوروشقاء.

ولم أكن يوسف ولم تكن أمي يعقوب.

كان يكيل لي اللكمات وينهال عليَّ ضربًا بالسياط كما يفعل بالخيل والبغال والحمير التي يركبُها في بلدته، ويفعل في عبيده وخدمه وعماله دائمًا، خرَجتُ من سجنه مسرعة في إحدى ليالي الشتاء الكئيبة، أبحث عن دواء لأمي.. بعدما منعني سنوات من الخروج، ومنع إخوتي من زيارتي، ألجمتني المفاجأة.. أنا لست الزوجة الوحيدة له، كما أفهمني ذلك، بل لست الثانية أيضًا، أنا الر ابعة في تعداد زوجاته، ويا لها من مفاجأة! أننا نسكن معهُنّ في نفس المنزل، أنا في الطابق الر ابع وهُنّ أسفل مني، كل واحدة منهن في طابق.

سجّان ماهر يسجن كل واحدة في طابق ولا اختلاط بيننا ولا تعرف إحدانا الأخرى، الشارع أيضًا لم يكن غريبًا عني.. إنه بالقرب من حجرتنا القديمة، أين إخوتي الذين كانوا يأتوننا مرة واحدة كل شهر؟ أين أختي التي حمِلَت سِفَاحًا من زوج أمها الذي نام معها على نفس فراش أمي؟! نفس الفراش الذي كان يعتلينا، اعتلاها بعدما فرغ من أمي وأصبحَت مُسنّة بعيدة عنه! لم تقوَ أختي على مقاومته، وأذَلّ أخي وأصابه إصابات بالغة، أتَى سجّاني الجديد وعلم أنني خرجتُ بدون علمه وكسرتُ قيوده؛

فأصَرّ على معاقبتي، ونِلتُ نصيبًا من الضرب والسّبَاب، ثم جذبني من شعر رأسي وألقى بي إلى الشارع بعد أن سحبَني على درجات المنزل كلها، تبكي أمي من خلفه وهي تمسك بابنتي وتحاول أن تمنعه، إلا أنها لم تقوَ عليه، بصق عليَّ كما فعلها صديقه من قبل، وألقَى على مسامعي بكلمة طالق، حفر في جسدي أنفاقًا من آثار التعذيب استمرَّت في جسدي.

عدتُ أجرُّ أذيال الخيبة ورائي، كان مصيري العودة إلى الحجرة مرة أخرى، حتى كان يوم آخر تفتّحَت فيه أبواب السماء واستجابَت لدعواتي؛ فها هو ابن عمّي عائد من الغربة، علمَ بحالِنا وأصَرّ على انتشالنا مما نحن فيه، يريد الزواج بي، مصطفى الذي أحبّني منذ كان صغيرًا وسافر وتغرّب من أجل أن يمحو عني تلك السنوات ولحظات الفشل والمرار، الذي أراد أن يحمِلَ هموم عمه وأبناء عمه، وعاد أخيرًا ليجدني ألتحف بأمي وإخوتي، وترضَع ابنتي من صدري لبنًا مملوءًا بالمرار والانكسار.

تم إلقاء القبض على عصابة لتجارة المخدرات في منشأة ناصر.. تلك عناوين الصحف في اليوم التالي بعدما قرَّرنا التخلص من السجان والإيقاع به.

وأبلغنا عنه الشرطة ووضَعْنا المخدرات في كل مكان بالحجرة، وتمت مراقبته والقبض عليه، ثم قررنا حرق تلك الحجرة حتى لا نعود إليها أبدًا.

تنازَلنا عن كل ما نملك أنا وإخوتي لنسدّدَه ثمنًا لحريتنا، كانت أختي قد تنازلَت عن عرضِها سابقًا، وقبّلَت أمي قدمه، وتعرَّيتُ أنا أمامه راقصة حتى تهدأ ثورته، ويتحسّس جسدي المتقيّح من أثر الضرب والإصابات السابقة؛ فلَم يرُق له بعدما عاينه وتفحصه جيدًا، فعَلْنا ذلك

ثلاثتنا معًا أمامه، ورفضنا أن يبقَى أخي ليشاهد تلك المأساة والمسرحية الهزلية.. حاولنا أن نحافظ على الجزء المتبقي له من كرامته.

- أنا الآن الملك و أنتم لي عبيد، عدتُم لي كما أبلغتكم من قبل، والآن تنامون في فراش واحد في انتظاري! جسدُكِ كله إصابات.. نهداك لم ينالَا إعجابي، أمُّكِ مثل الأرض البورلن أرويها، أختُكِ تفوز.. انتظروا وشاهدوا ما سأفعله معها.

لم أقوَ على سماع تلك الكلمات منه، احتضَنتُ أمي و ابنتي وبكينا.

حتى كانت لحظة القبض عليه بمثابة ليلة الفرح لي، احتضَنتُ مصطفى نبي الرحمة لنا، ورسول من الله ليخرجنا من الظلمات إلى النور.

و انتقلت مع مصطفى إلى حجرة جديدة في الشرابية.. بها نسائم الحرية، وشبابيك مفتوحة على الجميع، لا نخاف أحدًا ولا يخشى هو أيضًا أن يرانا أحد، وشعرتُ يومها أنّني في الجنة، وأن ما أشرب منه هو نهر الكوثر، وأن مصطفى هو رضوان حامل مفاتيح الجنة، وأدركتُ يومها أنّ صبرنا كانت نتيجته حريتنا ونجاتنا من نار الحجرة.

الفهرس